بين اللهو والجدّ:
الممارسات الثقافية للشباب اللبناني (دراسة ميدانية)(*)

مود اسطفان هاشم(**)
أستاذة في كلية الإعلام والتوثيق، الجامعة اللبنانية.

عزة شرارة بيضون(***)
أستاذة علم النفس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة اللبنانية.

مقدمة

حين نستمع إلى الموسيقى، أو نشاهد مسلسلاً تلفزيونياً، أو نقرأ نصّاً، أوحين نبحر في فضاء الإنترنت، فإننا نقوم باستهلاك ما ينتجه مجتمعنا المعاصر من ثقافة تدّعي أنها صُنعت للترفيه عنّا غالباً، لكن لـ «تثقيفنا» أحياناً. فالترفيه الذي تُنتجه في أيامنا صناعة متنامية الحجم والموارد، أصبحت ظروف استهلاكِه وأوجهُها حيّزاً واسعاً ينضمّ إلى حيّزَي العمل والعائلة لتشكّل معاً فضاء العيش الشامل لأغلب الناس. ويتميّز الترفيه باستوائه إلهاءً جاذباً عن هموم السعي اليومي لإدارة شؤون الحياة الأسرية والعملية، وعن أثقالها النفسية. ويشكّل استهلاك منتجاته مشاركة كل فرد منا بالشعور بأن ما يقوم به يتجاوز حاجات البقاء والاستمرار؛ فهي تمدّ عيشه بمعانٍ وتمثّلات تسمو به عن هذه الحاجات الدنيا، وتسمح له بالولوج إلى عالم الثقافة، معزّزة، بذلك، شعوره بتميّز جنسه ــ الجنس البشري ــ عن المخلوقات الأخرى.

في مرحلة الشباب، يتّسع الحيّز الموصوف وتتجاوز وظيفته الإلهاء والجذب والتسامي؛ فالممارسات الثقافية للشباب تكاد تتشاكل وظيفتها مع وظيفة اللعِب في مرحلة الطفولة. فكما تتكثّف في اللعِب العمليات النفسية المكوّنة للنمو الاجتماعي والعاطفي والذهني للطفل، فإن الممارسات الثقافية هي فسحة أساسية للشباب، يختبرون فيها مدى انفعالاتهم، وتُعينهم على صوغ قيمهم وتحديد اتجاهاتهم؛ ففيها يفعّلون ميولهم وتلوينات سلوكاتهم، ويعبّرون بواسطتها عن تطلّعاتهم، فيؤكدون عبرها عن وجهة انتماءاتهم الاجتماعية، ويرسمون بمفرداتها ملامح هوياتهم.

(*) أُنجِزَ البحث بمساعدة ودعم من المجلس الوطني للبحوث العلميّة في لبنان.
(**) البريد الإلكتروني: maud.stephan@hotmail.com.
(***) البريد الإلكتروني: azzabaydoun@gmail.com.

وإذ يسعى الشباب غالباً إلى التميّز من آبائهم وأمهاتهم، فهم يتوقون إلى الاقتداء بنماذج مغايرة عنهم؛ هذه النماذج لم تعد تقتصر على شخصيات أسرية أو دينية أو سياسية أو اجتماعية، بل أصبح عالم الترفيه العالمي والمحلّي من منتجيها الرئيسيين. وتوسّع أيقونات عالم الترفيه هذا دائرة «الأقران» التقليدية في عالم الشباب، بل تقوم مقامهم أحياناً، بالرغم من انتشارهم في أماكن ومجتمعات بعيدة. وأصبح للتخيّل دور مركزي في بناء الهويات (Appadurai, 2001: 11)، من خلال ما تنشره وسائل الإعلام من صور وتمثّلات مختلفة، لاسيّما أن المجموعات والأفراد انسلخوا عن المكان الأصل الذي نشأوا فيه. وسمحت التكنولوجيا الرقمية بالاتصال السريع والسهل بين أفراد من مجموعات متباعدة جغرافياً، وتقوية أواصر الصلة بين «مجموعات متخيّلة»[١] عابرة ــ هي أيضاً ــ للمسافات؛ وترتكز هذه الصلة على التشارك القائم بين تلك المجموعات في اللغة نفسها، وعلى التضامن في ما بينها حول أحداث ذات مغزى، وعلى اختبارها معاً الانفعالات التي تطلقها هذه الأحداث.

في مجتمعنا اللبناني تحديداً، يتمثّل بعض من خصوصيته في موجات من هجرات داخلية وخارجية تمتدّ إلى أكثر من قرنَين في الزمن. لذا، فهو قد اختبر العولمة الثقافية قبل نقش اسمها، بسبب ما يُدعى بـ «انفتاحه» على التيارات الثقافية العالمية، وانخراط قسم من أهله في تلك التيارات إنتاجاً واستهلاكاً. أما الشباب اللبناني، فيعيش في أيامنا المعاصرة في محيط سياسي واجتماعي واقتصادي متقلّب، ولا يعرف الاستقرار على وجهة واضحة المعالم، بسبب التنازع المستمر بين مرجعيات محلية ضيّقة مختلفة وأخرى عابرة لحدود الوطن. وهم يتعرّضون لشتى الرسائل الإعلامية والصور المتنوّعة التي توفّر لهم إمكانات واسعة للاختبار، أحياناً، وإرباكاً في ملاءمتها مع مخزون اختباراتهم واستيعابها فيه، أحياناً أخرى. ولعلّ هذه الوضعية تستجيب لتوقهم إلى الانتماء إلى مجموعات فعلية أو متخيّلة، يشعرون تجاهها بـ «حنين دون الذاكرة» (Appadurai, 2001: 64)[٢].

هذا، وقد أدّى انتشار وسائل الإعلام الجماهيرية السمعية المرئية، ثم الإلكترونية منها، في الحياة اليومية إلى تقلّص الفروق التي كانت سائدة بين الثقافة والترفيه (حيث كانت الثقافة للمثقفين وكان الترفيه لعامة الناس)، وصارت الثقافة وسيلة للترفيه. وتشكّل المضامين التي تنشرها وسائل الإعلام الجماهيرية مواد أساسية، ومناسبة وحيدة أحياناً، للممارسات الثقافية لفئات واسعة من المجتمع.

نحاول هنا تجنّب تصنيف هذه المنتجات والممارسات الثقافية وفق قوالب ما يسمّى «الثقافة الشرعية». وقد كانت المدرسة تؤسس لهذه الشرعية، وتسهم بشكل أساسي في بناء رأس المال الثقافي للشباب، وتزوّد روّادها بمقاييس التمتع الثقافي، مكمّلة دور العائلة في

(١) العبارة لـ بنيديكت أندرسن (B. Anderson) يستعيدها أبادوراي، موسعاً مفهومها إلى خارج إطار الوطن.

(٢) يعطي أبادوراي مثل الفلبينيين الذين يجيدون أداء الأغاني الشعبية الأمريكية القديمة، وهم ينظرون بحنين إلى عالم قديم لم يفقدوه لأنهم لم ينتموا إليه يوماً. وبين اللبنانيين حالات مشابهة من حنينٍ إلى عالمٍ ماضٍ لم يتعرّفوا إليه إلّا من خلال التخيُّل. ويستخدم عبارة Nostalgie sans mémoire.

اكتساب العادات الثقافية، وتعيد إنتاج «التمايز» الطبقي (Bourdieu, 1979). لكن المدرسة صارت في متناول الجميع، واتجه التعليم نحو بناء المهارات التقنية والمعرفة العلمية، بعيداً عن الثقافة الكلاسيكية التقليدية. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى أسهمت وسائل الإعلام الجماهيرية في بث نماذج مختلفة يُقتدى بها، وأوجدت نجومها، ونشرت مرجعيات خاصة بها، وآليات تقييم ومقاييس تمتّع جمالي مغايرة لتلك التي كانت الدراسات الإنسانية الكلاسيكية تحاول زرعها في نفوس شبابنا.

فإذا كانت الممارسات الثقافية الحيّز الذي يفعّل الشباب عامّة في رحابه هوياتهم الاجتماعية، واقعية كانت أم متخيّلة، فإن التعرّف إليها لا يغدو من بعض التعرّف إلى شريحة واسعة من ناس مجتمعنا فحسب، بل استشرافاً لوجهة مسار المجتمع، وحيثيات تآلف جماعاته ومجالات انقسامها. فالممارسات الثقافية ــ يرى الباحثون ــ مجال تتجلّى فيه صراحة ديناميات مؤثّرة في رسم وجهة مسار الشباب، وقوى المجتمع الفاعلة مستقبلاً.

نتريّث في هذا النقطة من مقالنا لنعرّف مصطلحاتنا؛ فنحن نعني بـ «الممارسات الثقافية»، في هذا الإطار، تلقّي واستهلاك أشكال التعابير والمنتجات الثقافية المختلفة، والمصنوعة[٣] تحديداً: من المؤلفات الكتابية والفنون، والمنتجات السمعية البصرية ... إلخ. وأوجه التفاعل معها. أما مرحلة الشباب، فقد حددناها بالشريحة العمرية ١٤ ــ ٢٤ سنة، متبنّين بذلك تعريف الأمم المتحدة للشباب.

أولاً: التعريف بالدراسة

تحاول هذه الدراسة رسم مشهد عام للممارسات الثقافية للشباب اللبناني؛ وذلك باستكشاف الشروط المحيطة بتلك الممارسات، وبرصد أوجه استهلاكها والوسائل المستخدمة من متون وأقنية، ومن أشكال ومضامين. كما نحاول تعيين ظروف تلك الممارسات ووتائرها. ونصبو أيضاً إلى تحديد بعض من اهتمامات الشباب وتفضيلاته المعبّر عنها في هذه الممارسات، وذلك في محاولة للإجابة عن السؤال الرئيسي التالي:

هل يتشارك الشباب اللبناني في الممارسات الثقافية التي يستهلكونها ليشكّلوا، بذلك، ما يعرف بـ «ثقافة فرعية» يمكن نعتها بـ «الثقافة الشبابية اللبنانية»؟ أم أن أنماط سلوكات شبابنا وتفضيلاتهم وخياراتهم واهتماماتهم في ممارساتهم تلك، تندرج في سياق انتماءاتهم المختلفة التي تقسّم مجتمعاتنا عمودياً وأفقياً؟ أي هل هناك **ممارسات ثقافية جامعة للشباب** اللبناني المعاصر، تنخرط فيها فئاته الاجتماعية ــ الثقافية المختلفة: الطائفية، الطبقية، التعلّمية، المناطقية؟ أم أن هناك فئات فرعية منه يتجه أفرادها للانخراط في ممارسات بعينها، ولتبنّي تفضيلات خاصّة بهم، تعمل على تشكيل هويات ثقافية فرعية متمايزة ومنغلقة على ذاتها؟

(٣) أي أنّ تعريفنا لا يشتمل الممارسات الثقافية الشعبية التكرارية المشمولة بالتعريف الأنثروبولوجي للمصطلح.

أما الأسئلة الفرعية التي تسهم في الإجابة عن السؤال الرئيسي، فقد صيغت على الشكل التالي:

ـ هل تطغى ممارسات ثقافية بعينها لدى فئة الشباب الجامعي على الممارسات الأخرى؟ أم أن هؤلاء يسعون إلى استهلاك ثقافي متنوّع لمختلف أشكال المنتجات الثقافية وتعبيراتها، بدون تمييز خاص بهم ؟

ـ ما هو دور المحيط الاجتماعي، الأسري والأعمّ، في تعيين الأشكال الفارقية لاستهلاك الثقافة المعروضة، وفي تعيين الاختلاف في الاهتمامات والتفضيلات التي يدور حولها ذلك الاستهلاك؟

ـ كيف ترتبط الممارسات والاهتمامات والتفضيلات في هذا المجال بعضها بالبعض الآخر؟

في كل مرّة يناقش باحث في العلوم الاجتماعية عندنا بحثه مع جمهور مهتم، تعترضه أسئلة تتناول تمثيلية العيّنة المدروسة لمجتمع (Population) ذلك البحث. ودافع السائلين من ذلك التأكّد من أن النتائج المعروضة عليهم قابلة للتعميم على أفراد المجتمع المختار لتلك الدراسة. إن الحصول على عيّنة ممثّلة لأغلب المجتمعات المدروسة عندنا صعبة للغاية لأسباب اختبرها الباحثون؛ إن اختيار عيّنة ممثّلة لمجتمع ما قد تتطلب «إنشاء» ذلك المجتمع، أي تعيين جميع مفرداته، من أجل ضمان حصول كل مفردة على الحظ نفسه لاختيارها في العيّنة المدروسة. فكيف يمكن تحقيق ذلك إذا لم تكن هذه المفردة محدّدة إحداثياتُها في المجتمع الأعم؟

في دراستنا هذه، اخترنا أن يكون مجتمعها السنة المنهجية الأولى في جامعات لبنان. ومصدر صعوبات الحصول على عيّنة ممثّلة فيها هو عدم توفّر بيانات الطلاب فيها مجتمعة وممركزة تسمح للباحث باختيار منهجي، ووفق القواعد الإحصائية المتبعة، لتلك العيّنة. إن عدم تمركز البيانات المذكورة يجعل سحب عيّنة عشوائية من هذا المجتمع بحاجة إلى موارد مالية وإنسانية لا يملكها باحث (أو بضعة باحثين) منفرد ذو موارد محدودة، فيصبح «الإصرار» على تمثيلية عيّنة الدراسات في العلوم الاجتماعية في الظروف الموصوفة عندنا، بمثابة تخلٍ عن البحث الميداني. وهو ما يجعل الباحثين الميدانيين قانعين بالمتوافر والمتاح، أي بالعيّنات «المناسبة» (Convenient Samples)، قابلين بأن تقدّم نتائجهم إضاءات جزئية على الوضعيات المدروسة، لتسمح بصوغ فرضيات، بما هي إجابات مؤقتة عن أسئلتهم؛ وذلك، ريثما تحفّز الضرورة المجتمعية والدولتية توفير الموارد الضرورية لإجراء المسوحات الميدانية الممثّلة. أي، حين يصبح بناء قاعدة البيانات إلزامية في مؤسسات المجتمع كافة، وتصبح إتاحتها للباحث من ضمن الواجبات المدنية لتلك المؤسسات.

هكذا، وبانتظار ذلك، يقدّم الباحثون لدى عرض دراستهم، شفاهة كان هذا العرض أم كتابة، بوصف تفصيلي لعيّناتهم، وذلك من أجل إبراز ما يرونه تحيّزاً فيها تنبيهاً للقارئ إلى وجوب التأني بشأن تعميم النتائج المحصّلة، وعوناً له على تعيين حدود الاستنتاجات الناجمة عنها.

تشكّلت عيّنة البحث الميداني من ٥٨٣ مفردة ــ ٢٢٨ من الطلاب و٣٥٥ من الطالبات ــ في السنة الجامعية الأولى، واختيرت من جامعات لبنانية عشر هي: الجامعة اللبنانية، جامعة بيروت العربية، الجامعة الأميركية في بيروت، الجامعة الإسلامية، جامعة القديس يوسف، جامعة اللويزة، الجامعة اللبنانية الأميركية، جامعة البلمند، الجامعة المفتوحة، والجامعة اللبنانية الدولية. وقد تمّ اختيار هذه الجامعات بوصفها تلك التي تنتسب إليها أكثرية الطلاب اللبنانيين في المرحلة الجامعية، بحسب إحصاءات المركز التربوي للبحوث والإنماء لسنة ٢٠٠٩[٤]. وقد توزّع الطلاب على الجامعات في المناطق اللبنانية كما يلي:

الشكل الرقم (١)
توزّع نسبة الطلاب بحسب المنطقة التي تقع فيها الجامعة

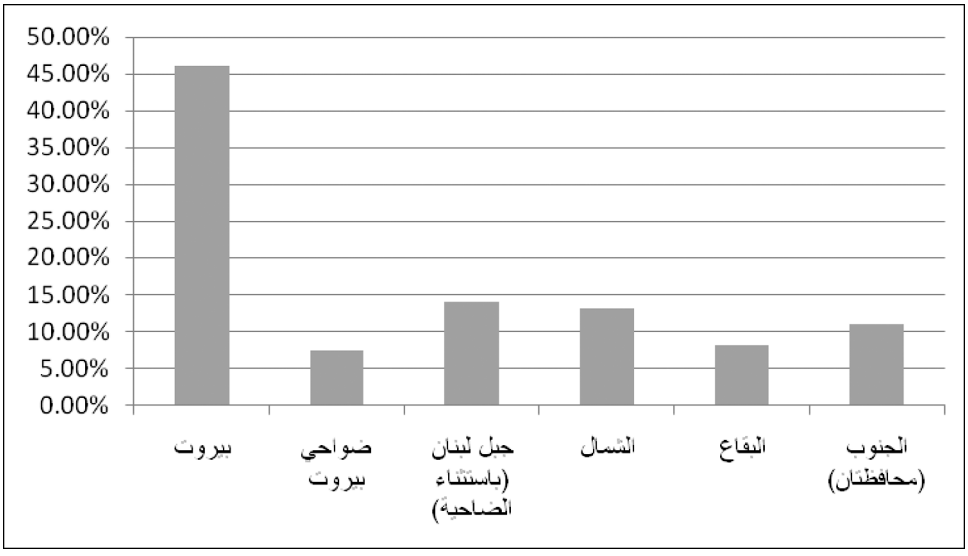

هذان الوجهان من التوزّع كانا الوحيدَين المقصودَين لدى اختيارنا للعيّنة، نعني أننا قصدنا أن تكون العيّنة المدروسة ممثّلة للشباب في السنة الجامعية الأولى في لبنان في نمطَي الجامعة (جامعة الدولة والجامعات الخاصّة)، وبحسب المنطقة التي تقع فيها الجامعة. فكان أن اختير عدد المفردات في كلّ جامعة وكلّ منطقة تبعاً للعدد النسبي للطلاب فيها، وذلك بحسب إحصاءات المركز التربوي للبحوث والإنماء لسنة ٢٠٠٩.

تركّزت أعمار النسبة الأكبر لأفراد العيّنة في الفترة العمرية ١٩ ــ ٢٠ سنة، وهي المرحلة العمرية المتوقّعة في السنة الجامعية الأولى، وجاء متوسّط أعمارهم ١٩,٥، متوزّعة بين ١٧ و٢٤ سنة هكذا:

(٤) توزّع الطلاب على الجامعات هكذا: ٤٧,٩ بالمئة من الجامعة اللبنانية، و٥٢,١ بالمئة من الجامعات الخاصّة (المركز التربوي للبحوث والإنماء، ٢٠١٠).

الشكل الرقم (٢)
توزّع أفراد العيّنة على فئات الأعمار

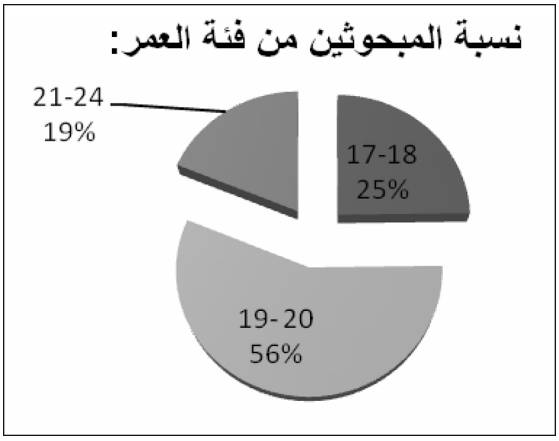

أما توزّعهم على الطوائف[٥]، فقد جاء على النحو التالي:

الشكل الرقم (٣)
توزّع الطلاب على الطوائف الثلاث

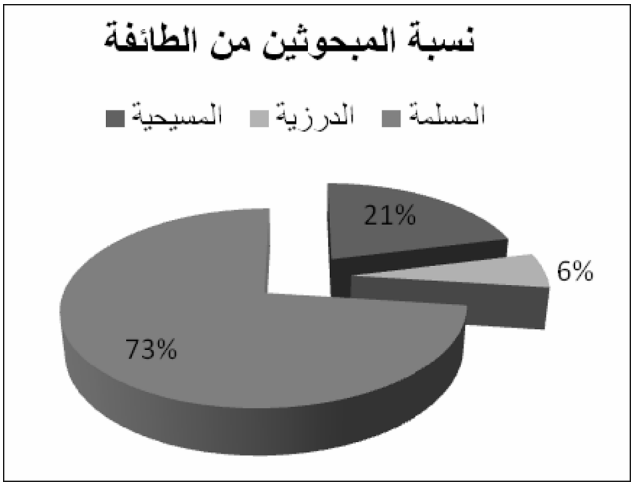

(٥) لا تشتمل المسوحات الإحصائية الرسمية على متغيّرة الطائفة، فلا تُعرف النسبة العامّة لأية طائفة من الطوائف اللبنانية. لكننا نفترض أن العيّنة المدروسة منحازة، وفيها من المسلمين (الشيعة والسنّة)، أكثر بكثير من نسبتهم العامّة في مجموع الطوائف اللبنانية. ونحن صنّفنا الأفراد من المذاهب: السنّة والشيعة والعلوية تحت مصنّف «الطائفة المسلمة»، وصنّفنا الأفراد من المذاهب: المارونية، الأرثوذكسية، الكاثوليكية، البروتستانتية... إلخ تحت مصنف «الطائفة المسيحية». نشير إلى أن قسماً من الطلاب والطالبات رفضوا ذكر مذهبهم في الخانة المخصصة لذلك، وكتبوا بدل ذلك، «المسلمة».

ولدى استقصاء المستوى التعليمي لآباء المبحوثين وأمهاتهم، تبيّن لنا أنها تفوق المستويات التعليمية المحصّلة للّبنانيين عامّة، ووفق إحصاءات ٢٠٠٧ (مديرية الإحصاء المركزي، ٢٠٠٨).

وفي غياب مؤشّر متفق عليه للانتماء الطبقي ـ الاجتماعي، يلجأ الباحثون في العلوم الاجتماعية عندنا إلى مهنة الأب[٦] والأم، أحياناً، من أجل تعيين أوّلي لمستوى الطبقة الاجتماعية الاقتصادية لأفراد عينتهم.

وقد بيّنت معطياتنا الآتي:

الشكل الرقم (٤)
نسب توزّع أفراد العيّنة تبعاً لمستوى مهنة آبائهم وأمهاتهم

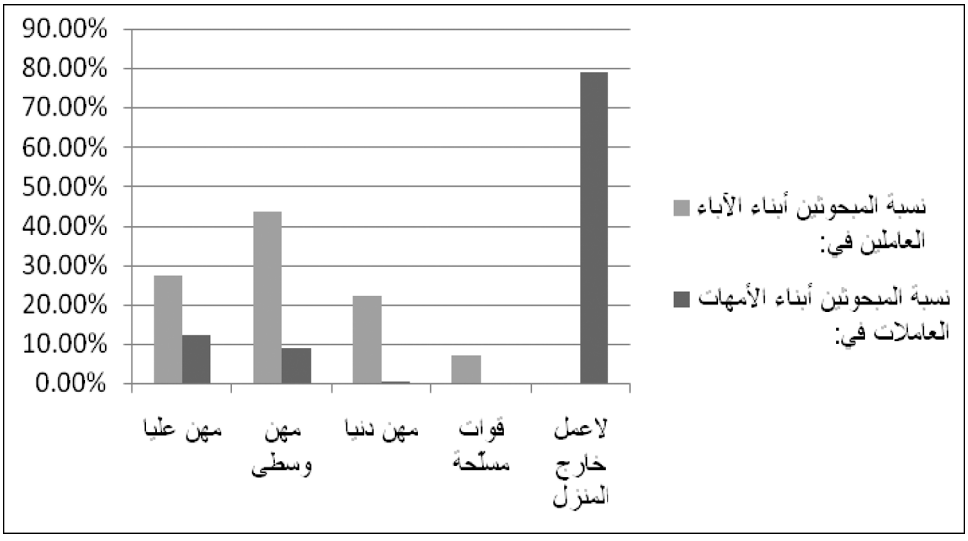

أما توزّع نسب الطلاب ـ أفراد هذه العيّنة ـ على نوع المدارس التي ارتادوها قبل الدخول إلى الجامعة، فقد جاءت هكذا:

(٦) افترضنا تراتباً للمهن على الشكل التالي: تضم المهن العليا الوزراء والنواب وكبار المسؤولين في القطاعين العام والخاص، وأصحاب المهن الفكرية والعلمية، وأساتذة التعليم، وأصحاب المهن الوسطى المساعدة في الطبّ والهندسة والتعليم. وتضمّ المهن الوسطى المستخدمين في المجال الإداري والمحاسبة، والعاملين في مجال الخدمات الشخصية والحماية والبيع في المتاجر، والمزارعين والعمال المهرة في مجالي الزراعة والصيد، والقوى الأمنية والمسلحة. أمّا المهن الدُنيا، فتشمل العاملين في مجال المهن ذات الطابع الحرفي، والعاملين في تشغيل وتركيب الآلات الثابتة والمتحركة، والعمال والمستخدمين غير المَهَرة.

الجدول الرقم (١)
نسب توزّع الطلاب على المدارس التي ارتادوها في المرحلة قبل الجامعية، بحسب نوعها

	مدارس حكومية	مدارس خاصّة	المجموع
نسبة المبحوثين الذي ارتادوا	٤٨,٨	٥١,٢	١٠٠

هذا التوزّع لا يشبه التوزّع العام للطلاب على المدارس بحسب نوعها، حيث يرتاد حوالى ثلثي الطلاب اللبنانيين عامّة مدارس خاصّة، فيما ينتسب الثلث الباقي إلى مدراس حكومية؛ وذلك بحسب النشرة الإحصائية للمركز التربوي للبحوث والإنماء (المركز التربوي للبحوث والإنماء، ٢٠١٠).

ويسكن أهالي الطلاب المبحوثين في لبنان غالباً، لكن قسماً ضئيلاً منهم يسكن خارج لبنان. وقد توزّع هؤلاء بحسب سكن أهلهم على الشكل التالي:

الجدول الرقم (٢)
توزّع أفراد العيّنة بحسب مواقع سكن أهلهم

بيروت	ضواحي بيروت	جبل لبنان (ما عدا الضواحي)	محافظة الشمال	محافظة البقاع	محافظتا الجنوب	خارج لبنان
١٤,٧	١٩,٠	١٩,٠	١٤,٩	٩,٩	١٧,٦	٥,٠

وتفيد المقارنة بنسبة توزّع السكان على المناطق اللبنانية[٧]، أن نسب توزّع الطلاب على المناطق اللبنانية لا تشبه نسب التوزّع الشبيه للسكان؛ فهناك انحياز في العيّنة لصالح بيروت، وتمثيل أقلّ لسكان البقاع والشمال. إلى ذلك، فإن توزّع أفراد العيّنة وفق كونهم ساكنين في مسقط رأسهم (الثابتين)، أم لا (المتحرّكين)، في العيّنة جاء كما يلي: أكثر الطلاب متحرّكون (٦٨,٣ بالمئة)، فيما الأقلية منهم ثابتون.

هكذا، فإن العيّنة في دراستنا هذه منحازة في أكثر من وجه: أعداد الطالبات فيها هي ضعف أعداد الطلاب، وأقل من نصف أفرادها بقليل يرتادون الجامعة اللبنانية، ويقع حوالى نصف الجامعات التي تضم مبحوثي هذه الدراسة في العاصمة، وحوالى ثلثَي أفرادها يتخصصون في الإنسانيات. وأكثرية هؤلاء من المسلمين (أقل من ثلاثة أرباعهم بقليل). لكن الانحياز الأكثر بروزاً، يتمثّل بميل أفرادها المسيحيين إلى أن ينتموا إلى الفئة الأكثر حظوة

(٧) توزّعت نسبة السكان على المحافظات الستّ كما يلي: البقاع ١٢,٤ بالمئة، الشمال ٢٠,٩ بالمئة، جبل لبنان ٣٩,١ بالمئة، الجنوب ١٠,٩ بالمئة، النبطية ٦,١ بالمئة، بيروت ١٠,٦ بالمئة (مديرية الإحصاء المركزي، ٢٠٠٨).

من الأفراد المسلمين فيها؛ فتحليل المعطيات الإحصائية بيّن أن المسيحيين في عيّنة هذه الدراسة يميلون إلى أن يكون أبناء وبنات أمهات وآباء أكثر تعلّماً، أو أبناء وبنات عاملات وعاملين بمهن أرفع شأناً؛ وقد ارتاد الطلاب المسيحيون مدارس خاصة ما قبل جامعية أكثر من زملائهم المسلمين.

إن إثبات وجه تحيّز العيّنة المدروسة يفيد القارئ، وكما ذكرنا سابقاً، في الإحجام عن تعميم النتائج المحصّلة على المجتمع بأكمله، ويجعله أكثر حذراً في القيام باستنتاجات سريعة حوله.

توسّلنا لتنفيذ بحثنا استمارة تناولت أوجهاً مختلفة من الاستهلاك الثقافي لدى شبابنا. وحَوَتْ تساؤلات تفصيلية حول طرق وأوجه تمضية الأوقات غير الدراسية. اشتملت الاستمارة على أقسام ستة[٨]: فبالإضافة إلى المعلومات العامّة حول المبحوثين، حاولنا رصد أشكال تزجية أوقات الفراغ، مشاهدة السينما والتلفزيون، الاستماع إلى الموسيقى، القراءة واستخدام الإنترنت. وفيها طرحنا على المبحوثين أسئلة طاولت وتيرة المشاهدة أو الاستماع أو القراءة (أو أحياناً بعضها معاً بحسب الحالة)، كثافة الممارسات الثقافية وتنوّعها، والظروف ــ الزمان والمكان، والمحيط الإنساني الذي تتمّ فيه ــ مواضيعها واللغة المستخدمة. كما رصدنا تفضيلاتهم واهتماماتهم في هذه جميعها. وتمّ توزيع الاستمارات على صفوف من الجامعات اللبنانية العشر في الفترة الزمنية الواقعة بين آذار/مارس ونيسان/أبريل ٢٠١٠[٩].

ثانياً: سوسيولوجيا الترفيه: وسائله وظروفه

ننظر في هذا القسم من مقالتنا إلى أنواع الممارسات الثقافية، من مشاهدة واستماع وقراءة واستخدام التكنولوجيا الجديدة للاتصال، متسائلين عن مدى تعرّض الشباب في مختلف المناطق والجامعات والبيئات الاجتماعية لوسائل الإعلام نفسها، وأوجه استهلاكهم لمضامينها واندفاعهم نحو هذا الاستهلاك. أي، إننا نرصد وسائل الترفيه المتاحة لهم، وظروف استخدامها، قبل البحث في خياراتهم وتفضيلاتهم واهتماماتهم كما تتجلّى في مضامين ما يشاهدون أو يستمعون أو يقرأون أو يبحثون.

وننظر، في ما يلي، عن كثب، إلى المجموعات والفئات المختلفة التي ينتمون إليها. ونحن قمنا في مكان آخر باستعراض الممارسات الثقافية، إنما بعدسة جندرية؛ أي درسنا

(٨) القسم الأخير من الاستمارة هو استبيان يهدف إلى رصد اتجاهات الشباب نحو الممارسات الثقافية. وقد صنّفت نتائجه المبحوثين في فئات ثلاث: تقليديين، مناصرين للقراءة، ومتغرّبين في ذائقتهم الموسيقية. لكن نتائج هذا القسم لن تعرض في هذه الدراسة.

(٩) قام بذلك محقّقون مدرّبون من مؤسسة ديمغرافيا؛ وتولّى العاملون فيها، إضافة إلى ذلك، عملية إدخال المعلومات ومعالجة المعطيات الإحصائية وتحليلها. وقام الإحصائي رضا حمدان بالتحليل الإحصائي الاستدلالي للمعطيات. ونفّذ البحث بالدعم المالي من المجلس الوطني للبحوث العلمية.

سلوك الشابات الجامعيات مقارنة بسلوك الشبّان للعينة نفسها (اسطفان ـ هاشم وشرارة بيضون، ٢٠١٠).

إلى ذلك، جمعنا معاً بضعة متغيّرات افترضنا أنها تشير، مجتمعة، إلى مرتبة الانتماء الاجتماعي ـ الثقافي في مجتمعنا. وهذه تكوّنت من المؤشرات التالية: رتبتَي مهنة الأب والأم؛ عمل الأم (عاملة بأجر أم مدبّرة منزل)؛ المستوى التعليمي لكلّ من الوالدين؛ نوع المدرسة الثانوية التي ارتادها الطالب في المرحلة ما قبل الجامعية. وعيّنّا، وفق المستويات المختلفة، مراتب اجتماعية ـ ثقافية ثلاث: عليا ووسطى ودنيا، وتمّ تصنيف كل واحد من المبحوثين في واحد من هذه المصنّفات لتشكّل مرتبته الاجتماعية ـ الثقافية.

١ ـ ترفيه من أجل الترفيه: المشهد العام لتجزية أوقات الفراغ

كيف يمضي الشباب أوقات فراغهم؟ ما هي المساحة التي تحتلّها مشاهدة الأفلام والبرامج التلفزيونية والاستماع إلى الموسيقى والمطالعة في حيّز ممارساتهم الثقافية؟

بيّنت نتائج تحليلنا الإحصائي الوصفي أن الرياضة تحتلّ المرتبة الأولى بين الهوايات المفضّلة لدى الشباب اللبناني. وقد اختارها أكثر من نصف شباب عيّنتنا، وتوزّع النصف الآخر بين مختلف أنواع النشاطات الثقافية، من نشاطات فنية مختلفة، إلى مطالعة وموسيقى ومشاهدة الأفلام. ولم يختر من أفراد عينتنا الإنترنت، بوصفه وسيلة ترفيه تصلُح لتمضية أوقات الفراغ، إلا ٥ بالمئة منهم، وهو ما يشير إلى اعتماده، على الأرجح، أداة ملازمة لمختلف أنواع أنشطتهم. كما تشير نتائجنا إلى أن الإنترنت صار في متناول الجميع تقريباً (٩٤ بالمئة)، ويستخدم عامّة من المنزل (حوالى ٧٢ بالمئة). وهو يستخدم بالتتالي للبحث وللتواصل، ولتنزيل الأفلام والموسيقى، وأقله للّعب[١٠].

هذا، وقد سيطرت الشاشات بمختلف أنواعها على متون الممارسات الثقافية للشباب الجامعي: نصف العيّنة يمضون ساعتين أو أكثر أمام شاشة التلفزيون، ونسبة متقاربة يمضون يومياً أكثر من ساعتين على الإنترنت، وقد تصل إلى ٥ ساعات أو أكثر في حالة ١٦ بالمئة منهم. ولا يتميّز لبنان من غيره على هذا الصعيد. فللمقارنة، يمضي الشباب بين ١٨ و٢٤ سنة في الولايات المتحدة، مثلاً، وبحسب دراسة شركة نيلسن، حوالى ساعتين يومياً على الإنترنت[١١]. ويفوق الوقت المخصص للتلفزيون مجمل الوقت المخصص للإنترنت[١٢].

وعلى العكس من ذلك، طغى الإنترنت على التلفزيون في فرنسا عند الفئة العمرية بين

---

(١٠) البحث ٧٦ بالمئة؛ التواصل ٦٣ بالمئة؛ تنزيل الأفلام والموسيقى ٤٢ بالمئة؛ اللّعب ٢٩ بالمئة.

(١١) ١٤ ساعة و١٩ دقيقة أسبوعياً على الإنترنت، تضاف إليها خمس ساعات ونصف ساعة أسبوعياً لمشاهدة الفيديو عبر الإنترنت، و٣١ ساعة أسبوعياً لمشاهدة التلفزيون.

(١٢) انظر: «How Teens Use Media: A Nielsen Report on the Myths and Realities of Teen Media Trends,» Nielsen (June 2009), <http://blog.nielsen.com/nielsenwire/reports/nielsen_howteensusemedia_ june09.pdf>.

١٥ و٢٤ سنة؛ إذ يمضي هؤلاء ساعتين وربع ساعة أمام التلفزيون، وثلاث ساعات أمام «الشاشات الجديدة»، أي في استخدام الكومبيوتر وألعاب الفيديو (Donnat, 2009). وإذا قارنّا ببلد عربي آخر، نجد نِسَباً متقاربة أيضاً عند الشباب التونسي؛ فالغالبية (٥٢ بالمئة) يمضون ثلاث ساعات يومياً على الأقل أمام التلفزيون، و٦٠ بالمئة من بينهم يمضون بين ساعة واحدة وساعتين يومياً في «الإبحار» في الإنترنت (المرصد الوطني للشباب، ٢٠٠٥).

نشير إلى أننا جمعنا المتغيرات التي ترتبط بأنواع المشاهدة ومتونها (وتيرة مشاهد الأفلام وارتياد السينما، وعدد ساعات مشاهدة التلفزيون، وممارسة هواية التصوير الفوتوغرافي) لتشكّل متغيراً مركّباً يعبّر عن «ميل الشاب نحو المشاهدة». فكان من الممكن النظر إلى العلاقة الإحصائية[١٣] لهذا المتغيّر المركّب بالمتغيرات الاجتماعية ـ الديمغرافية؛ فتبيّن أن المشاهدة تعمّ الفئات الاجتماعية بدون تمييز يذكر بين الطلاب الأصغر سناً والأكبر سناً، ولا فرق بين الطلاب والطالبات في وتيرة المشاهدة أو بين طلاب الجامعة اللبنانية وطلاب الجامعات الخاصة، إنما تتغير نسب الميل إلى المشاهدة وفق المستوى الاجتماعي الثقافي، ووفق المناطق. فطلاب الجامعات في بيروت والشمال وجبل لبنان أكثر استهلاكاً لجميع أنواع المشاهدة من طلاب الجامعات في الجنوب والبقاع وضواحي بيروت، ربما نظراً إلى توافر صالات السينما في العاصمة وضواحيها، وترتفع وتيرة الذهاب إلى السينما مع الارتفاع في المستويات الاجتماعية الثقافية.

إلى ذلك، فإن نصف شباب العيّنة نادراً ما يذهبون إلى السينما. وهذا يدل على ظاهرة مردّها إلى سهولة الحصول على الأقراص المدمجة المقرصنة للأفلام الجديدة والقديمة، والارتفاع النسبي لأسعار تذاكر السينما مقارنة بسعر بيع القرص، وهو ما يقلل من انتشار عادة ارتياد السينما بين الشباب بعد أن كانت، حتى زمن ليس ببعيد، المناسبة الأساسية، وأحياناً الوحيدة، للترفيه وللخروج مع الاصدقاء. نشير إلى أن ٢٠,٨ بالمئة من العيّنة لا يذهبون أبداً إلى دور السينما، وتتراجع ظاهرة عدم ارتياد دور السينما عند الشباب المسلم مع الصعود في السلم الاجتماعي[١٤]، بينما ٣ بالمئة فقط من الشباب المسيحي لا يذهبون إلى السينما أبداً، ولا فرق بين فئة اجتماعية وأخرى عندهم. وبالتالي يمكن اعتبار ارتياد السينما عادة مكتسبة ثقافياً بين المسيحيين من جميع الفئات الاجتماعية، بينما هي عادة يكتسبها الشاب المسلم من جرّاء انتمائه الاجتماعي إلى طبقات ميسورة.

---

(١٣) في هذه المقالة، وفي كلّ مرّة تتمّ مقارنة فئتين من الفئات المدروسة، فإن التصريح بوجود علاقة بين متغيّرين قيد الدرس، أو بتغليب أو تفوّق أو قصور فئة من الطلاب بالنسبة إلى أخرى بإزاء صفة أو سلوك أو تفضيل... إلخ، يعني أن الفروق بين الفئتين أو الارتباط بين ظاهرتين ذو دلالة إحصائية، وبأن مستوى الدلالة هو ٠,٠٥ أو أقل. وعلى العكس من ذلك، تنتمي الفئتان إلى مجموعة واحدة أو تكون العلاقة بين ظاهرتين بدون دلالة إحصائية.

(١٤) يتدرّج عدم الذهاب إلى السينما عند المسلمين من ١٣,٦ بالمئة من الفئات الاجتماعية العليا، إلى ٢٦,٦ بالمئة للفئة المتوسطة، إلى ٣٢,٧ بالمئة للفئات الدُّنيا.

ولا تغيب الموسيقى عن مجال سماع الشباب اللبناني عامّة، وفي معظم أوقاته: ٥ بالمئة منهم فقط لا يستمعون إلى الموسيقى أبداً. وهي ترافق الشباب في فترات الراحة والانفراد، وفي النزهات وخلال السهرات مع الأصدقاء[١٥]، ويتشارك ثلث الشباب مع الأهل في الاستماع إلى الموسيقى خلال السهرات العائلية. ولا ننسَى أن الاستماع إلى الموسيقى كان شائعاً بين الشباب منذ خمسينيات وستينيات القرن العشرين، مشكّلاً ميزة لهويّة جيل بكامله؛ وهي ممارسة لم يتخلّ عنها هؤلاء[١٦]، بعد أن صاروا آباء وأمهات الشريحة التي نحن بصدد دراستها. ولعلّ ما يسمح بشيوع الاستماع إلى الموسيقى وكثافته، هو انتشار ورخص وسائله الفردية والمحمولة وتنوّعها؛ خاصّة أن الجديد منها لم يلغِ ما سبقه[١٧].

ولا بد من الإشارة إلى أن الأجهزة المحمولة الفردية (mp3) باتت متاحة لمعظم الشباب، إلى جانب الراديو والأشرطة المغنطيسية (الكاسيت) التي ما زالت أداة استماع لم تفقد أهميتها. وتزداد إمكانيات تنزيل الموسيقى عبر الإنترنت، بحيث بات الكومبيوتر الوسيلة الأكثر استخداماً للاستماع إلى الموسيقى من قبل ٨٦ بالمئة.

الشكل الرقم (٥)
الاستماع وفق مهنة الأم

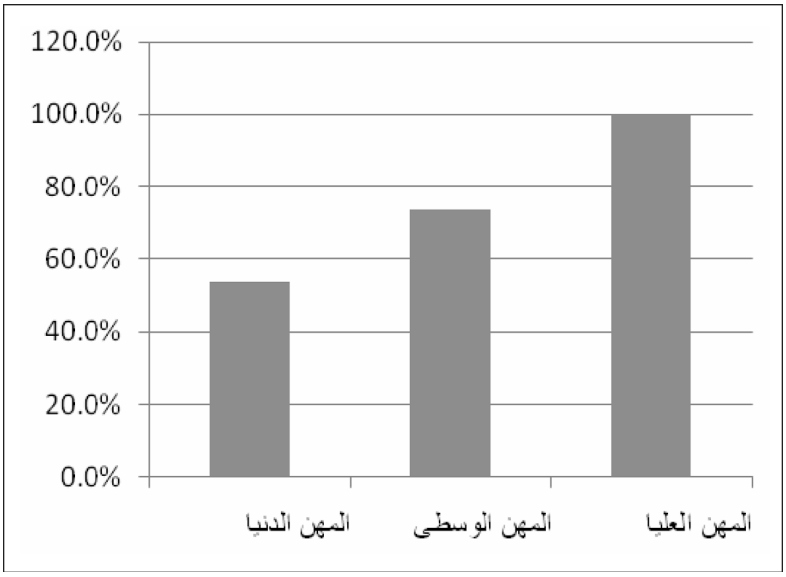

(١٥) ترافق ٨٩ بالمئة من شباب العيّنة في فترات الرّاحة والانفراد، وفي النزهات لـ ٨٢ بالمئة من بينهم، وخلال السّهرات مع الأصدقاء لـ ٧٣ بالمئة.

(١٦) هذا ما بيّنته دراسة فرنسية على سبيل المثال، (Donnat et Levy, 2007).

(١٧) الأقراص المدمّجة يستخدمها ٧٧ بالمئة من شباب العيّنة، والأجهزة المحمولة الفردية (mp3) باتت متاحة لـ ٦٨ بالمئة، الراديو ٧٠ بالمئة، والأشرطة ٤٢ بالمئة.

ونحن جعلنا النشاطات الموسيقية، من غناء وعزف وحضور حفلات، مجتمعة، متغيّراً مركّباً يشير إلى «الميل إلى الاستماع» على أنواعه. ويختلف الشباب من حيث مكانة الموسيقى في حياتهم، فيتدرّج الميل إلى الاستماع المذكور من الأقل إلى الأكثر، وفق المستويات الاجتماعية ـ ثقافية. ويلفتنا في هذا السياق دور الوالدة تحديداً في الميل المذكور. فمن تعمل والدته خارج المنزل وتكون من مستوى علمي ومهني رفيع يميل إلى أن يكون أكثر استهلاكاً للموسيقى وأكثر اندفاعاً نحو التعبير الموسيقي من الآخرين. فيبدو أن للوالدة، وفق نتائج هذه الدراسة، دوراً أساسياً في نشر جو من التعبير الحر، الموسيقي تحديداً، في المنزل.

قمنا، وبالطريقة المذكورة نفسها، باستحداث متغيّر مركّب ثالث مكوّن من عادة المطالعة وعدد الكتب المقروءة، وارتياد المكتبات، وأشكال الكتابة (من كتابة مذكرات أو شعر أو مدونة أو غيرها من النصوص العامة أو الخاصة)، أطلقنا عليه عنوان «الميل إلى القراءة والكتابة». وجاءت نتائجنا لتؤكّد مسوّغات الأسف الذي يبديه العاملون في التربية والثقافة عندنا: فنسبة من يميلون إلى القراءة والكتابة متدنّية جداً عند جميع الفئات، مقارنة بالممارسات الثقافية الأخرى. وهي متدنية في جميع المناطق، وعند كل الطوائف، وفي المستويات الاجتماعية والثقافية كافة. لكننا لاحظنا أن متغيّر المدرسة التي ارتادها الطالب قبل دخوله إلى الجامعة يمكن أن يؤثّر في نسبة الاندفاع نحو أنواع القراءة والكتابة؛ إذ تبدو هذه النسبة أعلى لدى طلاب المدارس الحكومية. فهل تعكس هذه النسبة واقعاً فعلياً، أم أملاً يُرتجى، يدفع الشباب إلى المبالغة في وصف إقبالهم على المطالعة؟ في الحالتين، تعبّر هذه الظاهرة عن مكانة الكتاب والعلم عند الفئات الاجتماعية الأقل حظاً، فتجعلهم أكثر اندفاعاً نحو العلم وأكثر تقديراً للنصّ المكتوب من زملائهم الذين ارتادوا المدارس الخاصة.

الشكل الرقم (٦)
عدد الكتب المقروءة خلال سنة كاملة

أما بالنسبة إلى معدلات المطالعة، فلقد صرّح ٦٠ بالمئة من شباب العيّنة أنهم قرأوا

بين كتاب واحد وأربعة كتب فقط في سنة واحدة، و١٩ بالمئة منهم لم يقرأوا أي كتاب خلال سنة كاملة. وهذه نسبة تقل عن مثيلتها في فرنسا، حيث بلغت ٢٢ بالمئة سنة ٢٠٠٨. وربما صار من الأسهل على الشاب في أيامنا هذه أن يصرّح بأنه لم يقرأ كتاباً واحداً خلال سنة، وذلك رغم كونه طالباً جامعياً، والسبب هو انتشار الوسائل الأخرى للقراءة، والاعتقاد أن الكتاب في صيغته الورقية سوف يزول أمام الصيغة الرقمية.

لا تقتصر المطالعة على قراءة الكتب، وإنما تشمل قراءة المجلات والصحف والأخبار عبر الإنترنت أيضاً. على هذا الصعيد، ليست الصورة قاتمة كلياً؛ فحتى من يدّعي أنه لا يحب المطالعة ولا يقرأ الكتب أبداً، نجده يبحث عن الأخبار والمواد الإعلامية المكتوبة عبر الإنترنت. فربع العيّنة تقريباً يقرأون الصحف على الإنترنت، وأكثر من ثلثها يبحثون في الإنترنت عن نصوص مكتوبة. وإذ تشكّل المجلات مادة مشجّعة لاكتساب عادة المطالعة، فإن الشباب يتابعون ما تنشره من أخبار الفنانين والمشاهير، ويطّلعون على الصحف اليومية. وهي ما زالت رائجة بين الشباب على الرغم من انتشار الوسائل الإلكترونية؛ وما يدل على ذلك، على سبيل المثال، أن ربع الشباب الأمريكي تقريباً يقرأون الصحف والمجالات يومياً رغم طغيان ثقافة الشاشات عندهم (Kaiser Family Foundation, 2010). وربع عينتنا يقرأون الصحف الإلكترونية، وأكثر من الثلث يبحثون عن نصوص مكتوبة على الإنترنت، ونصفهم تقريباً يتابعون أخبار الفنانين في المجلات[١٨].

٢ ـ الممارسات الثقافية: تلقٍ أم فعل ؟

من خلال عرضنا استخدام الشباب لوسائل الإعلام وإقبالهم على سبل الترفيه، يمكن أن نميّز بين تلقٍّ سلبيٍّ لما هو معروض أمامهم، كمشاهدة البرامج التلفزيونية ـ على الرغم من تعدّدها وإمكانية الاختيار بينها ـ وسعيٍ ناشط لاستهلاك المنتجات الثقافية، كالذهاب إلى السينما، مثلاً، أو حضور المهرجانات والحفلات الموسيقية، أو ما يمكن أن نعتبره في مرتبة أعلى من النشاط، مثل ممارسة بعض الهوايات والتعبير الثقافي كالرقص والغناء والعزف والكتابة... إلخ.

وقد تبيّن أن الشباب في عيّنتنا يُقبلون على المنتجات الثقافية، ويبحثون عن مواد تستجيب لاهتماماتهم الثقافية بنسب متواضعة: فهم إن كانوا غالباً ما يشاهدون الأفلام على التلفزيون (٦٩ بالمئة)، فقلما يذهبون إلى السينما (٢٩ بالمئة فقط)، ويشتري أو يستعير نصفهم فقط الأفلام على الأقراص، والربع يشاهدون الأفلام عبر الكومبيوتر. ورغم أهمية الموسيقى في حياتهم اليومية، فهم لا يحضرون الحفلات والمهرجانات الموسيقية ألا بنسبة متدنية (٢٢ بالمئة).

(١٨) ٢٣ بالمئة تحديداً يقرأون الصحف على الإنترنت، و٣٧ بالمئة يبحثون عن نصوص مكتوبة، و٤٥ بالمئة يتابعون أخبار الفنانين في المجلات.

ونلاحظ على العكس من ذلك، أن التصرّف تجاه المطالعة هو أكثر التزاماً وجديّة، إذ غالباً ما يشتري طلاب العيّنة الكتب أو يستعيرونها من أصدقائهم[١٩]. ويصرّح ٣٧ بالمئة منهم أنهم يقرأون نصوصاً من خارج الوظيفة الدراسية. كما يبدو أن للقراءة الورقية وعلى الإنترنت وظيفة غير ترفيهية لقسم من العيّنة: إذ يقصد، في المرتبة الأولى، حوالى الثلث محركات البحث والموسوعات الإلكترونية خلال عملية تصفّحهم الإنترنت، مقابل أكثر من النصف يقصدون بالدرجة الأولى الشبكات الاجتماعية ومواقع المراسلة والتحادث[٢٠].

ويُظهر الشباب رغبة في التعريف عن أنفسهم ومشاركة أصدقائهم الصور والأخبار عبر «الفيسبوك» (٧٢ بالمئة منهم حائزون مواقع في «الفيسبوك»). وقد يصل التعبير عن النفس إلى حد كتابة المذكرات أو الشعر والقصة، وهذه تبقى، على الأرجح، خاصة وبدون نشر. بينما يكتب أكثر من نصف شباب العيّنة على الإنترنت تعليقات أو مدوّنة أو مقالات علنية[٢١]، وهو ما يشير إلى مشاركات ناشطة في النقاش العام.

على صعيد الهوايات الشخصية، يمكن ملاحظة النسبة المتدنية للّذين يفضلون الهوايات الفنية، كالرقص والغناء والعزف (١٧ بالمئة)، التي تنمو مع تشجيع الأهل لها، وتؤدي المدارس دوراً هاماً في لفت انتباه التلميذ إليها وتنمية مواهبه فيها؛ وهذه عوامل ما تزال أهميتها تحتاج إلى تعزيز في مجتمعنا ومدارسنا[٢٢]. وبيّنت نتائجنا أن غالبية الشباب يهتمون بالتصوير الفوتوغرافي، الذي غدا في متناول كلّ من يقتني هاتفاً محمولاً، وهو ما يجعلها الممارسة الأكثر شعبية.

وإذا جمعنا المتغيرات التي تدل على وتيرة الاستهلاك الثقافي وكثافته (مشاهدة الأفلام، الذهاب إلى السينما، عدد ساعات مشاهدة التلفزيون، الاستماع إلى الموسيقى، معدلات القراءة، عدد ساعات استخدام الإنترنت) في متغيّر مركّب واحد تحت عنوان «كثافة الاستهلاك الثقافي»، يمكننا مراقبة توزّع الفئات الاجتماعية على درجاته (عليا ووسطى ودنيا)؛ فهو يتغير وفق المستوى الاجتماعي الثقافي للشباب: فمن هو من فئة اجتماعية ثقافية عليا يميل إلى التكثيف بأنواع الممارسات الثقافية أكثر من زملائه من الفئات الأخرى. ويتجلى ذلك أيضاً في ممارسات بعينها: تزداد مثلاً نسبة من يرتادون السينما[٢٣] أو من يعزفون على آلة موسيقية[٢٤] مع نسبة صعودهم في السلم

(١٩) ٧٢ بالمئة يشترون الكتب، و٦٤ بالمئة يستعيرونها.

(٢٠) ٣٥ بالمئة يستخدمون محرّكات البحث بالدرجة الأولى، مقابل ٥٤ بالمئة يقصدون مواقع التواصل الاجتماعي.

(٢١) مذكرات ٣٨ بالمئة؛ شعر أو قصّة ٢٨ بالمئة؛ تعليق ٤٨ بالمئة؛ مدوّنة ١٦ بالمئة؛ مقال ٨ بالمئة.

(٢٢) ١٦ بالمئة يمارسون الغناء غالباً، و١٢ بالمئة يعزفون على آلة موسيقية غالباً.

(٢٣) ارتياد السينما من ١٣ بالمئة إلى ٢٣ بالمئة إلى ٢٦ بالمئة، حسب مهنة الأب.

(٢٤) العزف من ٧ بالمئة إلى ١٠ بالمئة إلى ١٨ بالمئة، حسب مهنة الأب.

الاجتماعي[٢٥]. وتختلف نسب حيازة «الفيسبوك» وفق المستوى المهني للأب. لم نلحظ فوارق تذكر بين المناطق اللبنانية في كثافة الاستهلاك الثقافي والتعبير الفني، على الرغم من قلّة المناسبات المتوافرة في المناطق للمشاركة في الحياة الثقافية. بينما يمكننا ملاحظة أن الشباب المسيحي يميل نحو التعدّد في أنواع الاستهلاك الثقافي وتكثيفها أكثر من نظيره المسلم[٢٦]، لكنه لا يميل إلى التعبير الفني أو الكتابي أكثر منه، وكأن التماهي بالنموذج الغربي للترفيه ولتبنّي عادات ثقافية بعينها قد تشكّلا (التماهي والتبنّي) على صعيد الاستهلاك وحده.

٣ ـ وسائل الترفيه والإعلام: تنافس أم تكامل؟

في حَذَرِهم من الجديد وغير المألوف، يميل بعض الناس عندنا إلى عَزْوِ تراجع ممارسة ثقافية معيّنة إلى بروز أخرى جديدة، كأن يقال إن انتشار التلفزيون «قتل» السينما، أو إن مشاهدة التلفزيون تحدّ من المطالعة، وإن «الإبحار» في الإنترنت قلّل من فرص تلاقي الناس وضيّق مجالات اتصالاتهم.

ونحن نتساءل: هل إن وسائل الترفيه هي، وبحسب الاعتقاد الشائع، في حالة تنافس في ما بينها؟

لم تؤكّد نتائج بحثنا وجود علاقة دالة ـ إيجابية أو سلبية ـ بين مشاهدة التلفزيون وعدد الكتب المقروءة خلال السنة الماضية، مثلاً؛ فتدنّي مستوى القراءة ظاهرة عامة، وهي غير مرتبطة بعدد ساعات مشاهدة التلفزيون: يشاهد القارئ المقلّ التلفزيون بالوتيرة نفسها التي يشاهدها قارئ أكثر من خمسة كتب سنوياً. وليس هناك ما يشير إلى أن ازدياد عدد ساعات مشاهدة التلفزيون يقلل من وتيرة ارتياد السينما.

يعتبر البعض أن الممارسات الثقافية هي، على العكس من ذلك، مترافقة بعضها مع بعض، وكأن الواحدة منها تشجّع على الأخرى، بحيث يدفع الاستهلاك الثقافي إلى طلب المزيد منه وعلى التنوّع من أشكاله. ولنأخذ الاستماع إلى الموسيقى، مثلاً؛ تشير نتائجنا إلى أن الاستماع إلى الموسيقى لا يحدّ من الممارسات الأخرى، لكن هل يشكّل دافعاً إلى المزيد منها؟ يُظهر تحليل الإحصاءات التي في حوزتنا علاقة إيجابية بين الاستماع إلى الموسيقى والذهاب إلى السينما مثلاً، فمن يستمع غالباً إلى الموسيقى يذهب غالباً إلى السينما. وبيّنت الإحصاءات علاقة طردية دالّة بين العزف على آلة موسيقية وبين المطالعة، فهما هوايتان

(٢٥) أشار بورديو إلى ميل الطلّاب من الطبقات العليا إلى التعدّد في الممارسات والتنويع في الأذواق، نظراً إلى استقلال ذائقتهم وممارستهم الثقافية عن إطار المدرسة أو الجامعة (Bourdieu et Passeron, 1964: 27).

(٢٦) يرتاد الشاب المسيحي دور السينما أكثر من المسلم (٤٨ بالمئة مقابل ٢٢ بالمئة)، ويحضر المهرجانات الموسيقية (٣٤ بالمئة مقابل ١٧ بالمئة)، ويشتري الأقراص المدمجة (٧٠ بالمئة مقابل ٣٧ بالمئة)، وينزّل الأفلام عن الإنترنت (٥٤ بالمئة مقابل ٤٠ بالمئة)، لكنه لا يعزف أكثر منه ولا يغني أكثر منه ولا يشارك في النقاش عبر الكتابة على الإنترنت أكثر منه.

تتطلّبان نشاطاً ومواظبة. وفي السياق نفسه، ترتبط وتيرة الاستماع إلى الموسيقى مع معدّل عدد ساعات مشاهدة التلفزيون، فمن يستمع إلى الموسيقى غالباً يُحتمَل أن يجلس أمام شاشة التلفزيون وقتاً طويلاً.

وتترافق وتيرة مشاهدة التلفزيون مع وتيرة استخدام الإنترنت، وكأن كليهما يستجيب لفضولية واندفاع نحو ما يأتي إلينا من العالم الخارجي. فمن يشاهد التلفزيون لساعات أقل يُحتمل أن يستخدم الإنترنت ساعات أقل أيضاً، والعكس بالعكس، أي من يشاهد التلفزيون ساعات أكثر يُحتمل أن يستخدم الإنترنت ساعات أكثر. كما تترافق وتيرة استخدام الإنترنت مع عادة الذهاب إلى السينما؛ فالفئة التي تستخدم الإنترنت أكثر من ساعتين تميل إلى الذهاب إلى دور السينما أكثر من الفئة الأقل استخداماً للإنترنت. ولا يشكّل الإنترنت وسهولة تنزيل المنتجات الثقافية عبره عائقاً أمام الاستهلاك الثقافي، بل يبدو أنه، وعلى العكس من ذلك، معزّز له؛ فكلّما ازداد تنزيل الأفلام والموسيقى تزداد نسبة حضور المهرجانات الموسيقية، وكذلك ترتفع نسبة مشاهدة الأفلام في دور السينما.

تبدو العلاقة إيجابية إجمالاً، إذاً، بين مختلف وسائل الترفيه؛ ولعلّ ذلك عائد إلى مستوى الاهتمام بالثقافة والمعلومات، عامّة، بحيث تبقى أشكال التعبير مسألة ثانوية في هذا المضمار. ويظهر ما نقول بدقّة أكبر في حالة المطالعة:

فلا تُضيف ولا تُنقص عادة القراءة، مثلاً، عدد ساعات استخدام الإنترنت، إنما تتغيّر وفق الوظيفة المتوخاة في استخدام الإنترنت. فهناك علاقة إيجابية بين المطالعة واستخدام الإنترنت للبحث عن المعلومات (عوضاً عن اللعب أو الاستخدامات الاجتماعية). ومن يتوجّه لدى «إبحاره» في الإنترنت إلى مواقع الأخبار ومحركات البحث والموسوعات بدرجة أولى، فهو يقرأ، على الأرجح، كتباً غير مطلوبة للدراسة. بينما من يقصد مواقع التواصل الاجتماعي وتنزيل الأفلام والموسيقى في المرتبة الأولى، هو شخص يميل إلى أن يقرأ بصورة نادرة، أو لا يقرأ أبداً، كتباً غير مطلوبة للدراسة. إلى ذلك، تشير نتائجنا إلى أن من المرجّح أن يكون للقراءة، وللإنترنت كذلك، بعد وظيفي، للتعلّم والتثقيف، أكثر من كونهما وسيلتَي ترفيه بالنسبة إلى هذه الفئة من الشباب. ويتجلى ذلك، خاصّة، في العلاقة الإيجابية بين البحث عن نصوص مكتوبة وعادة القراءة.

٤ ـ مع الأهل ومع الأصدقاء: شبكة العلاقات الاجتماعية

أين يمضي الشباب معظم أوقات الفراغ، ومع من؟ هل يمضيه مع من يستمع إلى الموسيقى ومع من يشاهد الأفلام؟ ما وتيرة زيارته لمنطقة سكنه الأصلية؟ هل يمضي معظم وقته في المنزل؟ أسئلة أردنا من خلالها تحديد المحيط الاجتماعي الذي يحضن أنماط الترفيه، راصدين مدى ارتباط الشاب بمحيطه الطبيعي، أي الذي ولد فيه، أفراداً وأمكنة: العائلة، الأقرباء، المنزل، منطقة السكن الأصلي للعائلة، لنستشف العلاقة بين أنماط الممارسات الثقافية وكثافتها والمحيط الاجتماعي «الطبيعي» للفرد. هذا، وتشير الأبحاث إلى

واقعة تعدد الأطر التي يترعرع الفرد فيها، فلم تعد انتماءاته الاجتماعية الطبيعية تحدد، لوحدها، تشكّل هويته؛ إذ ينتمي الفرد إلى أطرٍ اجتماعية مختلفة خلال مسار حياته التعليمية والمهنية والاجتماعية، وهي تشكّل، مجتمعة، ما سمّيناه «محيطه الطوعي». هذا الأخير يتألّف من دائرة الأصدقاء، الجامعة، الجمعيات التي ينتمي إليها، الأحزاب والكشافة، مثلاً. وتسهم الأطر الاجتماعية المختلفة، التي يكون الفرد فيها أو يمر عبرها في حياته، في تشكيل ثقافته الفردية كما بيّن برنارد لاهير (Lahire, 2004)؛ وهو ما يفسّر التلاوين في الأذواق والتنوّع في أشكال الممارسات الثقافية لأفراد من طبقة اجتماعية ــ ثقافية واحدة.

ما زال الشباب في بلدنا يسكنون مع الأهل؛ فالهجرة الريفية أتت بالعائلات إلى ضواحي المدن إجمالاً، وقلّة (١٥ بالمئة) هم الذين يضطرون إلى السكن مع أصدقاء أو في سكن طلابي، لابتعاد سكن عائلتهم من أماكن وجود الجامعة. ويشكّل المتنقلون (أي الذين يسكنون بعيداً عن مسقط رأسهم) ثلثي العيّنة. ومعظمهم يتردد إلى مسقط رأسه أسبوعياً أو في الأعياد والمناسبات[٢٧]، فما زالت أواصر العلاقات الاجتماعية بالمحيط الطبيعي الأوسع (البلدة، العائلة الموسعة) قوية، تحضن الشاب والشابة في حياته اليومية، وتميل إلى التدخّل في صوغ خياراتهم وفي تأمين سُبُل عيشهم.

هذا، ويمضي ٣٧ بالمئة من شباب العيّنة أوقات فراغهم مع الأهل، ويمضي ٤٥ بالمئة منهم هذه الأوقات في المنزل. أما الباقون، فيتوزّعون بالتدرّج بين مقاه وأسواق وجامعات ومقار جمعيات أو أحزاب وأندية رياضية وشوارع الحي.

ويبدو بوضوح ارتباط التزام المنزل ومرافقة الأهل في أوقات الترفيه بالانتماء الاجتماعي ــ الثقافي للطالب. ويميل الشباب المسيحي من جميع الفئات الاجتماعية إلى الخروج من المنزل وعدم مرافقة الأهل أكثر من نظيره المسلم، الذي يتغير سلوكه نسبياً على هذا الصعيد بحسب مستواه الاجتماعي. وكما لاحظنا أعلاه، فإن الخروج من المنزل وارتياد الفضاءات العامة والابتعاد عن العائلة تبدو، وكأنها جميعاً، عادات مكتسبة ثقافياً عند المسيحيين، الذين تبنّوا سلوكاً عائلياً يميل إلى النموذج الغربي، وتبنّاه المسلمون من الفئتين المتوسطة والعليا فقط.

هذا، وجمعنا في متغيّر مركّب واحد مجموعة الأسئلة المتعلّقة بمحيط تمضية أوقات الفراغ (مع من وأين)، والانتماء إلى جمعية أو فرقة كشفية أو حزب، ومشاهدة الأفلام (مع الأصدقاء أو في الانفراد)، وظروف الاستماع إلى الموسيقى (مع الأصدقاء أو في الانفراد)، وحضور الحفلات الموسيقية أو المشاركة في فرقة موسيقية وحيازة مدونة على الإنترنت؛ وذلك تحت عنوان وحيد هو «العلاقات الاجتماعية». وصنّفنا الطلاب من خلال هذا المتغيّر المركّب في فئتين تدلان على مدى انخراطهم في علاقات اجتماعية خارج محيطهم العائلي. وغلبت فئة الناشطين اجتماعياً بقليل على فئة الذين ينكفئون عن عقدٍ علاقات اجتماعية

(٢٧) ١٧ بالمئة من المتنقلين لا يزورون مسقط رأسهم.

خارج محيط المنزل والأهل. وتبين أن الطلاب أكثر، إلى حد بعيد، من الطالبات انخراطاً في علاقات اجتماعية طوعية خارج ـ عائلية.

الشكل الرقم (٧)
العلاقات الاجتماعية حسب متغير الجندر

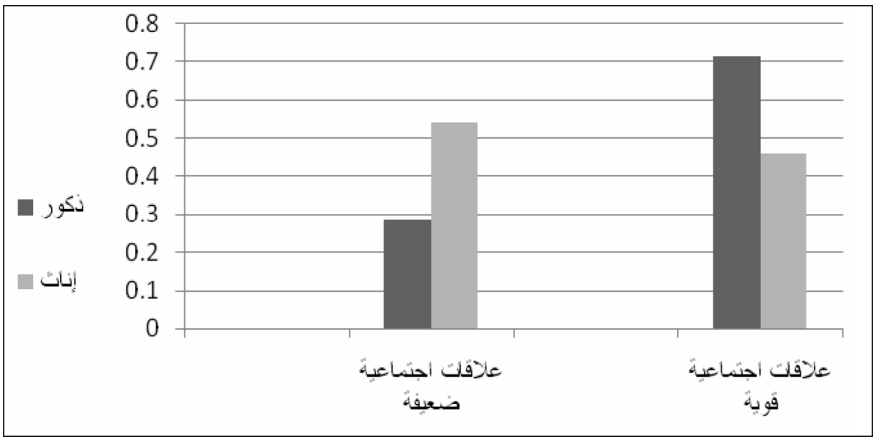

فمن هم هؤلاء الذين ينتمون إلى شبكات اجتماعية خارجة عن الانتماءات الطبيعية المباشرة؟ تشير نتائجنا إلى أنهم، على الأرجح، طلاب في جامعات خاصة، ومن سكان بيروت وجبل لبنان. ويبدو أنهم يميلون إلى أن يكونوا من مستوى اجتماعي ثقافي متوسط إلى مرتفع. وتظهر الفوارق الاجتماعية على هذا الصعيد عند الشباب المسلم أكثر من الشباب المسيحي؛ فهذا الأخير يميل إلى أن يكون نشيطاً اجتماعياً، وبمعزل عن انتمائه الاجتماعي ـ الثقافي. ولكن هل تؤثر كثافة العلاقات الاجتماعية في كثافة الاستهلاك الثقافي والتعبير الفني؟

يشير البحث في العلاقة القائمة بين المتغيّر المركّب (العلاقات الاجتماعية) والمتغيّر المركّب الآخر (كثافة الاستهلاك الثقافي) إلى أن من يُقبِل على التعابير الثقافية ويستهلكها بكثافة يكون نشيطاً، في الوقت نفسه، على الصعيد الاجتماعي؛ فهو يمضي معظم أوقات الفراغ مع الأصدقاء، ويمارس الهوايات معهم. وكأن الابتعاد عن المحيط الطبيعي المباشر يسهم في دفع الشباب نحو التمتّع بأشكال التعابير الثقافية والتنويع بينها.

يميل الطلاب الناشطون اجتماعياً نحو المشاهدة والاستماع أكثر من زملائهم، ولكن لا فرق بين الفئتين على صعيد الإقبال على المطالعة والكتابة، فهذه الأخيرة نشاطات تتطلب الوحدة والانفراد والتأمل أكثر من غيرها. كما لا علاقة إحصائية لافتة بكثافة استخدام الإنترنت، فهو أيضا متوافر في المنزل لدى حوالى ثلاثة أرباع أفرد العيّنة، ويستخدم عادة في الانفراد، وهو وفّر للفئات التي تلازم المنزل، والشابّات خاصة، الاتصال بالخارج والمشاركة في بعض الحياة الثقافية من خلاله.

الشكل الرقم (٨)
العلاقة بين كثافة الممارسات الثقافية والعلاقات الاجتماعية

تلخيصاً، لا يختلف الشباب اللبناني عن شباب العالم في درجة إقباله الشديد على الأفلام والبرامج التلفزيونية والموسيقى واستخدام الإنترنت. لكنه متلقٍ أكثر منه فاعلٌ على صعيد الممارسات الثقافية، فهو لا يتميز بالنشاط والإقبال الشديد على العزف مثلاً، وارتياد المكتبات والمهرجانات وغيرها من المناسبات العامة. إلى ذلك، فإن قسماً هاماً من الشباب اللبناني يبقى في دائرة المنزل والأسرة خلال أوقات فراغه، لاسيما ذاك الذي ينتمي إلى المستويات الاجتماعية الأدنى، وكأن المجال أمامه غير فسيح بشكل كاف يسمح له بالاستقلال عن عادات الأهل وأذواقهم الثقافية.

هذا، باستثناء الإنترنت الذي يؤمّن له الانفراد والتواصل، افتراضياً، مع أقرانه، والذي عمّ الفئات الاجتماعية كلها ودخل المنازل وفتح آفاق الاتصال بالعالم الخارجي والمشاركة في الحياة الثقافية العامة حتى لأكثر الفئات انطواءً. فماذا يختار الشباب من بين كل ما هو معروض عليهم؟ وبِمَ يهتمون؟

ثالثاً: محمولات الممارسات الثقافية: التفضيلات والاهتمامات

يحتمل الترفيه أن يكون لذاته، فلا تتعدّى وظيفته تمضية وقت الفراغ، بل «قتل» ذلك الوقت. الفراغ في هذا المضمار يُحدثه إنهاء الواجبات المهنية أو المدرسية، بحسب الحالة، أو الانتهاء من صيانة الشأن الشخصي والأسري ــ الحيّزين اللذين أطلقنا عليهما في مطلع هذا المقال حيّزي العمل والأسرة. لكن الترفيه (والممارسات الثقافية إجمالاً) يسعه أن يكون غائياً، مثلاً، فتتسلّل إليه أفكار ومعارف وتصوّرات يمكنها الوصول عبره (أي عبر الترفيه المذكور)، «على غفلة» من وعي المتلقي أو إرادته؛ كما هي الحال في الإعلانات التجارية، مثلاً، أو الرسائل الدينية والسياسية والأيديولوجية المبثوثة في الوسائل البصرية والسمعية،

عامّة. ولا ضرورة لإعطاء أمثلة، فهي غامرة الوجود حولنا. ما نحاول قوله هو أن الممارسات الثقافية ليست «حيادية» الوجهة، بل حمّالة لقيم وميول ولمعتقدات، ووسيلة للتعبير عن اهتمامات وتفضيلات. وهي قد تكون، تبعاً لذلك، كشّافة عن انتماءات عامّة أو فرعية نحاول في دراستنا هذه استكشاف مداها وحدودها.

في هذا الجزء من مقالتنا نحاول أن نرصد تفضيلات الشباب نحو الممارسات الثقافية، واهتماماتهم المحمولة على تلك الممارسات.

١ ـ التفضيلات وملامح من الهوية

في زمن تعدّدت فيه وسائل الإعلام وتنوّعت مصادرها، عابرة المسافات والحدود بين الدول، لم يعد الجمهور سلبياً في تلقّيه الرسائل الإعلامية والنماذج التي تطبع مخيّلته وتؤثر في فهمه للعالم. فهو ـ والشباب منه خاصة ـ يختار مصادره، وينتقي من بين الرسائل المتعددة ما يستجيب لتطلعاته. فينتقل من محطة تلفزيونية إلى أخرى، و«يُبحر» في الإنترنت للحصول على مختلف أنواع الوثائق والتعابير، بدون مراقبة أو توجيه. وفي «إبحاره» هذا وانتقائه للصور والمعلومات والأفكار، يمزج في ثقافته النماذج المتباعدة والتأثيرات المختلفة، من مصادر محلية، عربية، عالمية. فيشكّل ذائقته الثقافية الفردية، ويعبّر عن توْقه إلى الانخراط، استهلاكاً وإنتاجاً، في ثقافات يمكن أن تكون بعيدة عن محيطه الأصلي أو قريبة منه. لكن ما هي مصادر الترفيه والتثقيف المفضلة عند طلاب العيّنة؟

حين طلبنا من الطلاب تسمية الأقنية التلفزيونية الثلاث الأكثر تفضيلاً لديهم، لم نتوقّع أن تكون النتائج على هذا القدر من التعدد؛ فمجموع الأقنية المفضّلة يقارب عدد الأقنية المتوافرة في أغلب المنازل اللبنانية، أي المئة! لم يظهر بين طلابنا توجهٌ عامٌ نحو أقنية محددة. غالبيتهم تفضّل الأقنية التي تبث الأفلام الأجنبية والمسلسلات المدبلجة والعربية بشكل أساسي. يطلبون من خلالها الترفيه وليس التثقيف، إذ ٦ بالمئة منهم فقط اختاروا قناة وثائقية.

من خلال أسئلتنا عن المفضّل من الأفلام والأقنية التلفزيونية وأنواع الموسيقى، اعتمدنا تصنيفاً يشتمل على هذه التفضيلات، ويميّز بين أفراد العيّنة تبعاً للتفضيل الذي يبدونه في إجاباتهم عن الأسئلة المذكورة: التفضيل للمصادر الغربية والتفضيل للعربية أو للمحلية. وقد تبين أن العيّنة تتوزّع بالتساوي تقريباً بين من يتوجّه نحو التعابير والمصادر الإعلامية الغربية (٤٦ بالمئة) ومن يفضل التعابير والمصادر العربية (٥٤ بالمئة). والطلاب أكثر تفضيلاً للغربية من الطالبات. ويتميّز طلاب جامعات بيروت وجبل لبنان والشمال من طلاب جامعات الجنوب والبقاع وضاحية بيروت من حيث تفضيلهم للمصادر الغربية، كذلك طلاب الجامعات الخاصة مقارنة بطلاب الجامعة اللبنانية[٢٨].

(٢٨) ٥٦,٥ بالمئة للجامعات الخاصة و٣٥ بالمئة للجامعة اللبنانية.

تتجلى الفوارق الاجتماعية ـ الثقافية أيضاً على هذا الصعيد، كما هو ظاهر في الرسم البياني التالي:

الشكل الرقم (٩)
توزّع التفضيلات الغربية على المستويات الاجتماعية ـ الثقافية

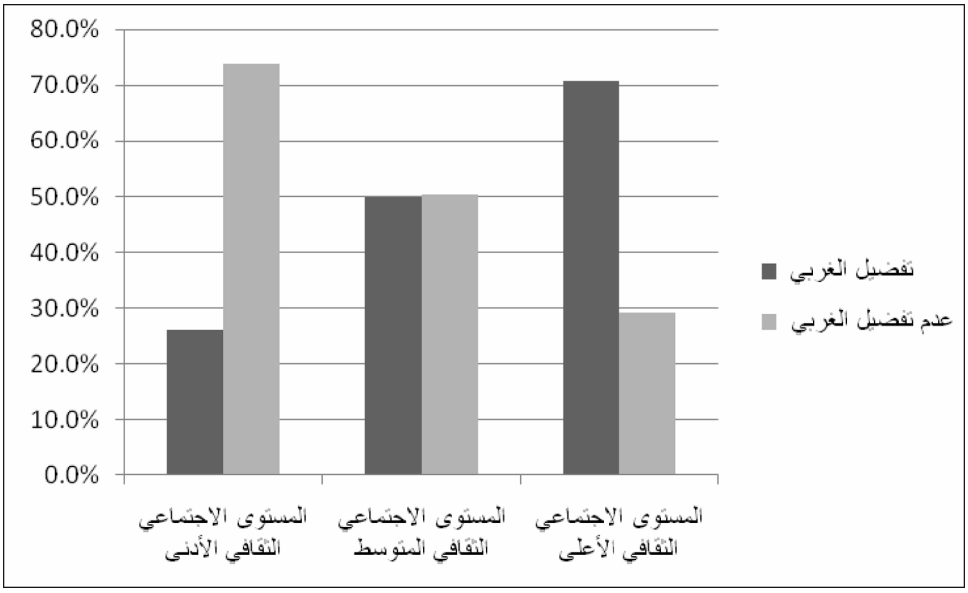

هذا وقد تبيّن أن من يستخدم التكنولوجيا بكثافة («الإبحار» وتنزيل الأفلام والموسيقى وكتابة المدونات ... إلخ.) يميل نحو الأفلام والبرامج والموسيقى الغربية. وبشكل عام، فإن كثافة الاستهلاك الثقافي بمختلف المتون مرتبط إحصائياً بالتغرّب في التفضيلات[٢٩]، وكأن ما يُنتجه الغرب أكثر جذباً للجمهور الشبابي من الإنتاج العربي. ويبدو أن سهولة انتشار الصورة والموسيقى وخرقهما للحواجز اللغوية جعلهما، على عكس النصوص المكتوبة، عاملَين مؤثرَين في تبني تلك الوجهة. فلقد لاحظنا أن لكثافة المشاهدة والاستماع علاقة بالميل نحو المنتجات الثقافية الغربية، بينما ليس للمطالعة تأثير فيها.

٢ ـ اللغة الأم واللغات أخرى

لعلّ لبنان من البلدان القليلة في العالم التي يصحّ فيها السؤال الذي طرحناه على شبابنا بالشكل التالي: ما هي اللغة المفضّلة لديك للقراءة وللبحث في الإنترنت؟ وذلك لأن

(٢٩) ٦٣ بالمئة من الذين يستهلكون بكثافة مختلف أنواع التعابير الثقافية يميلون إلى المصادر الغربية، مقابل ٣٧ بالمئة لا يميلون إليها.

تفضيل اللغة الأم[٣٠]، ووفق ما هو «معروف» عندنا، ليس عمومياً. فتفضيل اللغة الأم يُحيل، بشكل غير مباشر، إلى انتماءات طائفية، وإلى تماهٍ مع ثقافة دون أخرى، وإلى تبنّي هويّة لا تتماهى بالضرورة مع محيط بلدنا العربي.

في نتائجنا أن ٦٥ بالمئة من الشباب اختاروا اللغة الأم لغة مفضّلة للقراءة (أي إن نسبة غير قليلة منهم (٣٥ بالمئة) اختاروا لغة غير اللغة الأم). لكن نسبة من يفضّل القراءة باللغة الأم تنخفض إلى ٣٤ بالمئة من الذين يبحثون عن نصوص للقراءة على الإنترنت، والباقون يفضّلون لغة أجنبية (الإنكليزية غالباً) للقراءة والبحث في الإنترنت. ولا يقتصر الأمر على القراءة بمختلف متونها، بل يتعدّاها إلى المشاهدة (أفلام السينما وبرامج ومسلسلات التلفزيون، مثلاً) وإلى الاستماع (الأغاني، الفيديو كليب مثلاً).

ونحن قمنا بجمع هذه التفضيلات لتشكّل معاً متغيّراً واحداً أطلقنا عليه «تفضيل اللغة»، فصُنّف كل مبحوث في خانة من اثنتين: فهو إما يفضّل العربية وإما يفضّل غير العربية في ممارساته الثقافية. ومن هذا المنظور تبيّن لنا الآتي:

لا فرق بين الشابّات والشبّان إزاء تفضيل اللغة العربية ولا اللغة الأجنبية؛ فنسبة الشابّات اللواتي يتوسّلن اللغة العربية في ممارساتهن الثقافية من مجموع الشابات في العيّنة تساوي نسبة الشبّان (من مجموع الشبّان) الذين يفضّلون اللغة العربية. ويمكن تكرار القول بالنسبة إلى اللغة الأجنبية، فلا يسعنا التأكيد أن أياً من الجنسين يميل إلى استخدام لغة أكثر من الأخرى في ممارساته الثقافية.

باستثناء الجندر، فإن مبحوثينا يختلفون في تفضيل اللغة في جميع المصنّفات الأخرى التي ينتمون إليها: الأكبر سنّاً أكثر توسّلاً للغة العربية من الأصغر سناً، ومرتادو الجامعة اللبنانية هم أكثر تفضيلاً للغة العربية بكثير من المنتسبين إلى الجامعات الخاصّة؛ وذلك التفضيل يبقى قائماً إذا كانت الجامعة الخاصّة في العاصمة أم لا. ومن تخصّص بالآداب والإنسانيات، فإن احتمال تفضيله للغة العربية يزداد مقارنةً بمثيله المتخّصص بالعلوم العلمية أو التقنية. والطلاب ذوو الخلفية الاجتماعية الثقافية الأعلى هم، على الأرجح، أكثر تفضيلاً للغة الأجنبية على العربية وسيلة لممارساتهم الثقافية.

ترتسم للشبان والشابات المفضّلين للغة الأجنبية صورة هي أشبه بأن تكون ذات حظوة اجتماعية، مقارنةً بأولئك الذين يفضّلون اللغة العربية في ممارساتهم الثقافية، وهو ما يشير إلى أن الوسيط اللغوي لاستهلاك الثقافة يفرّق بين شبابنا عمودياً (الأعمار، والاختصاصات) وأفقياً بين الفئات الاجتماعية ــ الثقافية. إن تضافر العوامل في الاتجاه نفسه معاً يشكّل محدداً حاسماً في ذلك التفريق.

(٣٠) أي اللغة العربية أساساً والأرمنية، بدرجة ضئيلة على نحو مناسب مع تعداد أفراد الطائفة الأرمنية النسبية بين العائلات الروحية اللبنانية.

كيف نفهم تفضيل اللغة الأجنبية لدى الفئة الشبابية ذات الحظوة الثقافية الاجتماعية في مجتمعنا اللبناني؟

نذكّر بأن اللغة الأجنبية ترافق المتعلّم اللبناني منذ مرحلة التعليم التمهيدية الأولى وحتى نهاية المرحلة الثانوية من التعليم النظامي المعمّم على جميع المدارس اللبنانية، رسمية كانت أو خاصّة. فاللغة الأجنبية تحتل حيّزاً من الامتحانات الرسمية، التي تؤهّل المتعلّم للانتساب إلى الجامعة، ولا يسعه الانتساب إلى أيّة جامعة لبنانية، خاصة كانت أو رسمية، بدون الإلمام باللغة الأجنبية. وغنيّ عن القول أن تعلّم لغة أجنبية لا يستوي في فراغ، بل يُحمل على المنتجات الثقافية والعلمية لأهل تلك اللغة الأصليين، فلا يستقيم فصل الاثنين إلا بتدابير قسرية لا نعرفها في مجتمعنا اللبناني المفتوح على المنتجات الغربية أو غير الغربية بجميع مكوّناتها، الثقافية منها، ضمناً.

هكذا، تعرّض التلامذة اللبنانيون، وإن بتفاوت، لأنماط من الإنتاج الثقافي والعلمي الغربي (الفرنسي والإنكليزي/ الأمريكي، خاصة)، مرافقاً لذلك التعليم من آداب وفنون اشتملت على عروض بصرية وسمعية ومسرحية، وحيث طُلب منهم أن يكونوا مطّلعين على الإنتاج الأدبي الفرنسي أو الإنكليزي، بحسب الحالة[٣١]، وذلك في أقل تقدير؛ نتكلّم، هنا، عن المنهاج التعليمي النظامي ما قبل الجامعي، الذي أنهاه بنجاح كل فرد من عينتنا ــ طلاب سنة أولى جامعية لبنانية.

لكن هؤلاء، وكما هي حال الشباب اللبناني كله، أكانوا طلاباً في الجامعات أم لم يكونوا، مُغرَقون بالمُنتجات البصرية السمعية المهيمنة على الفضاء الثقافي العالمي؛ وذلك منذ شيوع الفضائيات التي كثّفت مختلف المنتجات الثقافية غير العربية (والعربية بالطبع)، وأتاحتها للجميع بدون استثناء، بعد أن كانت وسائل الإعلام المحليّة (الراديو والتلفزيون) قد مهّدت لاستقبالها، بجعلها مألوفة نسبياً في ذائقة الناس الثقافية عندنا. لكن يبقى أن من هو أكثر ألفة مع لغة أجنبية هو مستهلك للثقافة التي تحملها هذه الفضائيات الغربية بدرجة أكبر ممن هو أقلّ ألفة معها.

هذا، وتشير الدراسات التقييمية لتطبيق المناهج النظامية في المدارس اللبنانية كافّة، والتي نفّذت في السنوات العشر الأخيرة، إلى «علوّ شأن» اللغات الأجنبية في المدارس والجامعات الخاصّة، مقارنةً بمدارس التعليم العام (التابع للدولة اللبنانية). ولا ضرورة لتأكيد أن مرتادي الجامعات والمدارس الخاصة ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية الأكثر يسراً[٣٢]، وأنهم على

(٣١) وذلك تبعاً لكون اللغة الثانية (بعد اللغة العربية المفروضة على الجميع)، التي يختارها الطلاب على مقاعد الدراسة ما قبل الجامعية، هي الفرنسية أو الإنكليزية، وبحسب الحالة.

(٣٢) هتف الطلاب الثانويون والجامعيون في أواسط الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، إبّان تحركاتهم الطلابية الواسعة المطالبة بتعريب التعليم في لبنان، الهتاف التالي: «يلّي بيّو بيحكي فْرَنْجي... هيدا أحوالو بْرِنْجي» (أي أن من كان أبوه يعرف لغة أجنبية، فإن أحواله ستكون على ما يرام لأنه سينجح في شهادة البكالوريا التي تكتب موادها كلها، ما عدا العربية، بالأجنبية)... وذلك للدّلالة على الصّفة الطبقيّة/ الكولونيالية للمناهج التعليمية عندنا.

الأرجح الجيل الثاني ــ أو أكثر ــ من مرتادي هذه المدارس والجامعات، ويحملون، تبعاً لذلك، تراكماً من المخزون اللغوي والثقافي الأجنبيَين[٣٣]؛ فلا تكون النتيجة المحصّلة في دراستنا هذه في عداد المفاجآت.

نودّ، في هذا المقام، تفحّص ما هو شائع في أذهان الناس عندنا من أن المسيحيين هم مستهلكون للثقافة باللغة الأجنبية أكثر من المسلمين؛ وبأن ذلك ذو صلة بتاريخهم الطائفي ما قبل الاستقلال، وتماهي نخبتهم مع المنتدب الفرنسي، وارتياد أولاد هذه النخبة (و«عامّة» الناس الآخذين بهم نموذجاً يحتذى، والذاهبين في ركبهم) المدارس الإرسالية الأجنبية التي كانت تجعل من اللغة الأجنبية لغة الدراسة لكل المواد، وتهمّش اللغة العربية في مناهجها، وبرامج دروسها اليومية[٣٤]. لكن نتائجنا بيّنت، ولدى تفحّص عيّنة المسيحيين وعيّنة المسلمين، كلٍ بمفردها، أن أفراد الفئة الأكثر حظوة على السلّم الثقافي ــ الاجتماعي من الفئتين يميلون إلى تفضيل اللغة الأجنبية على العربية في ممارساتهم الثقافية؛ بالمقابل، فإن الفئة الأقلّ حظوة من الطائفتين، يميل أفرادها إلى تفضيل اللغة العربية على الأجنبية وسيلة لممارساتهم الثقافية. بكلام أوضح: بعكس المنمّطات الشائعة في هذا المضمار، الطائفة ليست كتلة صمّاء.

٣ ـ الاهتمامات والثالوث «الحرِج»

أ ـ الانشغال بالسياسة

يرغب أكثر الشباب في أن يكونوا مطّلعين على الأخبار؛ فـ «ظاهرة» متابعة نشرات الأخبار عادةٌ انتشرت بين اللبنانيين إبّان حروبهم المسمّاة أهلية، فهي وفّرت لهم أهم مصادر معلوماتهم حول ما يجري، والبوصلة التي وجّهت تحرّكاتهم اليومية، ومن تتابعها كانوا يستشرفون ما ينتظرون من أيامهم القريبة والأبعد. بعد الحروب المذكورة، استقرّت نشرات الأخبار على كونها استعراضاً لمعلومات ومتابعات سياسية وأمنية، فلا تحتلّ غير السياسية، أو غير الأمنية منها، سوى جزء ضئيل من مساحتها. ولدى سؤالنا الشباب في عينتنا عمّا إذا كانوا يتابعون نشرات الأخبار على التلفزيون مثلاً، تبيّن أن حوالى ٦٠ بالمئة يشاهدون برامج الأخبار التلفزيونية. لكنهم يفضّلون، على أية حال، الأقنية التلفزيونية غير

(٣٣) في اتصال مع د. عدنان الأمين، أستاذ التربية في الجامعة اللبنانية، الذي أشرف على فريق دراسي قام بتقييم تطبيق المناهج التربوية الجديدة في جميع أنماط المدارس، وعلى امتداد الجمهورية اللبنانية، أكّد لنا الأمين أن تلامذة المدارس الخاصّة في لبنان يتّقنون اللغة الأجنبية المقرّرة (الإنكليزية أو الفرنسية، بحسب الحالة) بدرجة أكبر من إتقانهم اللغة العربية، وأن تلامذة المدارس الرسمية (المجانيّة) أبدوا ضعفاً في اللغات كلّها.

(٣٤) يشكو بعض اللبنانيين من الدوائر الثقافية الذين درسوا في هذه المدارس الإرسالية من ضعفهم في اللغة العربية، ويحيلونه إلى إهمال إدارات هذه المدارس لها؛ ومن مظاهر ذلك الإهمال مثلاً، جعل حصة اللغة العربية «بعد الظهر»، بل أحياناً في أوقات عطلتهم الأسبوعية، أي في أوقات يكون الطلاب فيها قد فقدوا حيويتهم وزخم تأهّبهم لتلقّي العلم.

المسيّسة ـ الحيادية سياسياً، بل إن أكثرهم[٣٥] يفضّلون مشاهدة الأقنية غير اللبنانية، حيث يتمّ تناول الأخبار السياسية اللبنانية بطريقة أقلّ تفصيلاً من تناولها في أقنية التلفزيون المحلّية، وحيث إن الأحداث اللبنانية، باستثناء الصاخبة منها، هي غالباً بندٌ وحيدٌ من بنودها.

إلى ذلك، فإن ١٨,٧ بالمئة من الشباب ينتمون إلى أحزاب أو تيارات سياسية. هذا لا يعني أن الانشغال بالسياسة يقتصر على هذه الفئة من الشباب؛ إذ إن حوالى ضعف هذه النسبة في العيّنة يشاهدون الأفلام السياسية، وأكثر منهم بقليل يشاهدون البرامج التلفزيونية السياسية[٣٦]. ومن يقرأ منهم نصوصاً غير مطلوبة في دراساتهم، فإن أكثر من ثلثهم يقرأون كتباً ومقالات سياسية. لكن بالرغم من أن الإنترنت واسعُ الاستخدام بينهم، فإن نسبة قليلة[٣٧] منهم تبحث عن نصوص سياسية في فضاءاتها.

وبخلاف الصورة التي يحملها بعض الناس للشخص المنشغل بالسياسة، وتظهره عازفاً عن الترفيه، مثلاً، ومنشغلاً عنها بأمور «مهمّة»، فإن الشاب المنشغل بالسياسة عبّر في إجاباته عن استمارتنا عن **كثافة وتنوّع** في ممارساته الثقافية أكثر من مثيله غير المنشغل بها. نشير إلى أن الشباب اللبناني، أسوة بالشباب في بقاع أخرى من العالم، يتوسّل الغناء والسينما والتعابير المتنوّعة في الصحافة الإلكترونية، مثلاً، للتعبير عن احتجاجاته على الحروب الإسرائيلية وعلى الاغتيالات السياسية، وعن مناصرته للعلمانية ومعارضته للطائفية، وعن رفضه للتمييز الجندري، وعن تحمّسه لقائد، وازدرائه للآخر... إلخ. من شؤون مطروحة على الساحة اللبنانية.

ولا يتميّز الشاب المنشغل بالسياسة من مثيله غير المنشغل بها بإزاء توسّع شبكة علاقاته الاجتماعية. تضيق دائرة العلاقات من أصدقاء لدى الفئتين أو تتسع، بمعزل عن ممارساتهم الثقافية ذات النكهة السياسية.

تشكّل المؤشرات التي ذكرنا، كلٌّ بمفرده، مؤشّراً على الاهتمام بالسياسة. والتفاوت في نسب الشباب في ممارساتها إنما يدلّ على أن تعابير ذلك الاهتمام متنوّعٌ، ولا يسعنا إذ ذاك الاكتفاء بواحد منها لرسم صورة واضحة عن ذلك الاهتمام. لذا، لجأنا إلى توليف متغيّر من هذه المتغيرات جميعها، يسعه أن يمثّلها معاً، أطلقنا عليه اسم «الاهتمام بالسياسة»؛ وقمنا، من ثمّ، بتصنيف المبحوثين بين مهتمين بالسياسة وأمورها، أو غير مهتمين بها، تبعاً لموقعهم إزاء مكوّنات التوليفة المذكورة (الانتماء إلى حزب سياسي، قراءة مقالات وكتب سياسية، البحث عن معلومات سياسية عبر الإنترنت، مشاهدة البرامج السياسية على التلفزيون... إلخ).

(٣٥) ٦٥ بالمئة من الشباب مثلاً، يفضلون الأقنية التلفزيونية غير اللبنانية.

(٣٦) ٣٧ بالمئة و٤١ بالمئة على التوالي.

(٣٧) ١٤ بالمئة منهم.

وفق هذا المتغيّر المتعدد المكوّنات، على ماذا يلتقي الشباب اللبناني؟ وكيف يختلف؟

حوالى ثلث الشابّات يهتم بالسياسة مقابل حوالى الثلثين من الشبّان. ويزداد ذلك الاهتمام مع تقدّم أعمارهم. وتتساوى الطوائف في ذلك الاهتمام أو في عدمه: فلا المسلمون ينشغلون بالسياسة أكثر من المسيحيين، ولا العكس صحيح. فالطوائف، مثلاً، تتوزّع الـ ١٨,٧ بالمئة من شباب العيّنة المتحزّبين منهم بالتساوي: المسيحيون والمسلمون والدروز منتسبون، أو هم غير منتسبين، إلى حزب أو تيار سياسي، بالدرجة ذاتها.

ولا يختلف هؤلاء في ممارسات تحيل إلى اهتمامهم بالسياسة تبعاً لمواقعهم على السلّم الاجتماعي ـ الثقافي. وإذ يهتم طلاب الجامعات الخاصة بالسياسة أكثر من طلاب الجامعة اللبنانية (شبه المجانية)، فإن من يختص بالآداب والإنسانيات منهم لا يُبدي اهتماماً بالسياسة أكثر من زميله ذي التوجّه العلمي أو التقني.

ويبرز المكان متغيّراً مميّزاً بين فئتين: فيبدو شباب العاصمة بيروت وضواحيها وجبل لبنان، والمرتادون منهم لجامعاتها، أكثر انشغالاً بالسياسة من الشباب الساكنين في المناطق الأبعد (الجنوب والشمال والبقاع) والمنتسبين إلى جامعاتها. ويبدو أن السكن في مهجع طلابي أو مع الأصدقاء ـ أي خارج مسكن العائلة ـ من العوامل التي تحفّز على الاهتمام بالسياسة. كما أن «الثابتين» من الشباب، أولئك الذين يسكنون في مسقط رأسهم، هم الفئة الأقلّ اهتماماً بالسياسة؛ وذلك إذا قورنوا بزملائهم «المتنقلين» ـ أي الساكنين في بلدات أو مدن غير مسقط رأسهم.

وكما هو متوقّع، فإن الشباب الذين يمضون أوقات فراغهم في مقار أحزابهم وجمعياتهم أو في المقاهي والأسواق ـ أي في الفضاءات العامّة التي تفترض ابتعاداً عن المجالات الحيوية الأسرية والتربوية ـ يميلون إلى الاهتمام بالقضايا السياسية، وبمشاهدة البرامج المتلفزة والأفلام السياسية، فيما يُبدي الشباب الذين يمضون أوقات فراغهم في المنزل أو في الجامعة أو في ساحات الحي اهتماماً بها أقل بكثير. لكن، وعلى وجه الإجمال، فإن من يميل إلى أن يكون اجتماعياً ليس بالضرورة أكثر اهتماماً بالسياسة وشؤونها من الشخص الأقلّ ميلاً إلى قضاء وقته مع الأصدقاء.

وإذا افترضنا أن الاهتمام بالسياسة ينطوي على الرغبة بالتبادل الكلامي مع الآخرين واستمالتهم، فإن مخاطبتهم بلغة الأم تبدو لنا مرتبطة بذلك الاهتمام. فهل إن لتفضيل اللغة الأم للقراءة وللبحث عن نصوص سياسية على الإنترنت صلة بالانشغال السياسي بين الشباب؟ نتائجنا تشير إلى رجحان احتمال أن يكون الاهتمام بالسياسة مرتبطاً بتفضيل اللغة العربية في استهلاك الثقافة لهذه الفئة من الشباب اللبناني. لكن من جهة ثانية، فإن تفضيل المنتجات الثقافية الغربية هو نفسه لدى المهتمين ولدى غير المهتمين بالسياسية. أي، إن الشاب اللبناني، سواء انشغل بالأمور السياسية أو لم ينشغل، فإن استهلاكه للثقافة الغربية هو نفسه.

ب ـ الاهتمام بالدين

نشير، أولاً، إلى شيوع الاهتمام بالدين بدرجة غير قليلة بين شبابنا: فنِصفُ العيّنة من الشباب الجامعيين أفادوا بأنهم يشاهدون أفلاماً دينية، وأقلّ من ذلك العدد بقليل يستمعون إلى أناشيد دينية، وعدد مماثل يقرأ كتباً ومقالات دينية؛ لكن المهتمّين منهم بالبحث عن نصوص دينية على الإنترنت أقلّ من ذلك، لكنّها ليست بقليلة[٣٨]، على كلّ حال. يبقى أن ٠,٧ بالمئة منهم فقط اختاروا برنامجاً دينياً تلفزيونياً على أنه برنامجٌ مفضّلٌ لديهم. واختار ٢,٥ بالمئة من بينهم أقنية دينية على أنها الأقنية الثلاث المفضلة.

لكن، كما هي حالنا مع «الاهتمام بالسياسة»، جمعنا المؤشرات الدالّة على الانشغال بالأمور الدينية في متغيّر واحد أطلقنا عليه اسم «الاهتمام بالدين». وقد تمثّلت هذه المؤشرات في كوكبة من الممارسات التي ذكرناها أعلاه، أي في قراءة كتب ومقالات دينية، ومشاهدة أفلام ومسلسلات دينية، والاستماع إلى أناشيد دينية، والبحث عن مواضيع دينية على الإنترنت... إلخ. وصُنّف كلّ مبحوث، وفق موقعه على درجات في سلالم هذه الممارسات ووجهاتها، وذلك في مصنّف واحد من اثنين (مهتم بالأمور الدينية أو غير مهتم بها).

تشير النتائج المحصّلة بفعل معالجة المعطيات الإحصائية إلى وجود تمايز، بإزاء الاهتمام بالدين، بين أكثر الفئات التي تتوزع العيّنة المدروسة عليها، باستثناء فئات قليلة منها:

فالشبّان والشابّات، مثلاً، متوافقون في مستوى اهتمامهم بالدين، إذ إن نسبة من يهتم من الشبّان بالأمور الدينية تقارب نسبة الشابّات في هذا المجال. هذا الاهتمام يزداد مع التقدّم في العمر. كما يميل المنتمون إلى الفئات الاجماعية ـ ثقافية الأقل حظوة إلى الاتجاه نفسه؛ فتزداد نسبة الشباب المنشغلين بالدين تبعاً لتدنّي مستواهم الثقافي، والعكس بالعكس. إلى ذلك، فإن نسبة طلاب الجامعة اللبنانية المهتمين بالدين هي أكثر (إحصائياً) من نسبة الطلاب الذين أبدوا اهتماماً شبيهاً في الجامعات الخاصة. وأبدى المسلمون[٣٩] من المستويات الأدنى، من جهتهم، ووفق المتغيّر الشامل المذكور أعلاه، اهتماماً بالدين أكبر من اهتمام المسيحيين؛ هذا الاهتمام يبقى متدنياً لدى الأفراد المسيحيين، أياً تكن الفئة الاجتماعية ـ الثقافية التي ينتمون إليها.

اللافت أن اختيار مادة الاختصاص لا تميّز بين المهتمين بالدين وغير المهتمين؛ فالذي

---

(٣٨) ٣٦ بالمئة من الطلاب يبحثون عن مواضيع وخطب دينية على شبكة الإنترنت.

(٣٩) يبدو الطلاب الدروز من الأقلّ انشغالاً بالدّين في إطار ممارساتهم الثقافية: فقط ١٠ بالمئة منهم يهتمّون بالمواضيع الدينية على الإنترنت (مقابل ٤٠ بالمئة من المسلمين و٢٢ بالمئة من المسيحيين)، و٦ بالمئة منهم فقط يقرأون كتباً ومقالات دينية (مقابل ٥٢ بالمئة من المسلمين و٣٥ بالمئة من المسيحيين)، و١٣ بالمئة منهم يستمعون إلى أناشيد دينية (مقابل ٥٣ بالمئة من المسلمين و٤٣ بالمئة من المسيحيين)، لعلّ ذلك ناجم عن كون الدروز الطائفة الوحيدة التي لا تقدّم تعليماً دينياً منهجياً للمنتسبين غير الراشدين إليها.

اختار الاختصاص التقني أو العلمي يهتم (أو لا يهتم) بالأمور الدينية في ممارساته الثقافية بالدرجة نفسها التي يهتم (أو لا يهتم بها) من اختار المواد الأدبية أو الإنسانية.

وحول ارتباط الاهتمام بالدين بالممارسات الثقافية الأخرى، يتساوى المهتمون بالأمور الدينية مع الأقل اهتماماً في وتيرة استخدام الإنترنت، وتنوّع أسباب اللجوء إليها؛ والفئتان من الشباب تتجهّان لتثمين التكنولوجيا الحديثة بالدرجة نفسها. إلى ذلك، فإن من يفضّل اللغة العربية في قراءاته ومشاهداته التلفزيونية أو السينمائية، أو لدى بحثة في الإنترنت... إلخ. هو على الأرجح أكثر اهتماماً بالدين ممن يفضّل اللغة الأجنبية. كما أن المهتمين بالدين أكثر ميلاً إلى القراءة والكتابة، وإلى اعتماد الكتاب متناً محبّذاً لاكتساب المعرفة، وللحصول على المعلومات من الفئة ذوي الاهتمام الأدنى بالشؤون الدينية.

هذا، ولا يرتبط الميل إلى استهلاك الثقافة البصرية بالاهتمام بالأمور الدينية عبر الممارسات الثقافية، لكن من يستمع إلى الموسيقى في متونها المختلفة، مثلاً، هو أقلّ اهتماماً بالدين من زميله الأقلّ تفضيلاً للثقافة السمعية. فيبدو كأن الاهتمام بالدين متآخياً مع الثقافة البصرية أكثر منه مع الثقافة السمعية.

إلى ذلك، فإن الشباب ممن اهتموا بالسياسة، مهتمون على الأرجح بالشؤون الدينية؛ وهو أمر متوقّع في ظروفنا الحاضرة، نظراً إلى تقاطع دائرتي الاهتمامَين في بلادنا على أكثر من صعيد. لكن لا صلة ذات دلالة بين الاهتمام بالدين والانشغال بالجنس (مشاهدة أفلام إباحية، البحث عن أفلام إباحية على الإنترنت)؛ فيتساوى من اهتم بالدين مع غير المهتم به بالانشغال بالجنس في ممارساته الثقافية.

هل إن الأكثر اهتماماً بالدين هم أكثر قعوداً بالمنزل وأكثر مصاحبة لأهلهم، وأكثر التزاماً بزيارة مسقط رأسهم دورياً، مثلاً؟ هل هم أكثر انفتاحاً على الآخرين، الأصدقاء خاصّة؟

نتائجنا تشير إلى أن الاهتمام بالدين مرتبطٌ، واقعاً، بصفة الدائرة الإنسانية التي تحيط بمجال تحرّكهم: فكلّما ارتفعت وتيرة اهتمام الشاب أو الشابة بالشؤون الدينية، ضاقت دائرة المحيط الإنساني والمجال المكاني لممارساته الثقافية، وتراجع تنوّع شبكاتهم الاجتماعية، والعكس بالعكس.

لكن هل نستنتج أن الدين، أو الاهتمام به، بؤرة جاذبة لشبّان وشابّات ذوي استعداد نفسي للانطواء على الذات، والانغلاق على الجماعات الأولية، والانجذاب إلى مجالاتها الحيوية؟

إن كون المهتمين بالدين منتمين إلى فئات اجتماعية أقلّ حظوة اجتماعياً يجعلنا نستبعد العامل النفسي، ونرجّح العامل الاقتصادي ــ الاجتماعي من أجل تأويل هذه النتائج؛ فالممارسات الثقافية الخارج ــ منزلية والخارج ــ عائلية، تفترض اقتداراً على بذل المال على أمور تتجاوز الحاجات الأساسية، وتفترض بعض العادات المكتسبة في التنشئة الأسرية

والقائمة على مفاهيم لموقع الممارسات الثقافية ووظيفتها في الحياة اليومية للناس. إلى ذلك، فإن توسّع دائرة المحيط الإنساني وتجاوزها إلى أشخاص وجماعات من غير الأهل هما، وفق الباحثين في علم الاجتماع، من مؤشرات الانتماء إلى الطبقات الاجتماعية والثقافية الأعلى[٤٠].

ج ـ الاهتمام بالجنس

صرّح ١٨,٤ بالمئة من المبحوثين في العيّنة المدروسة، وبناء على سؤالنا المباشر، بأنهم يشاهدون أفلاماً إباحية، والشبّان يشاهدونها أكثر بكثير[٤١] من الشابّات. كما أجاب حوالى ربعهم بـ «نعم» على سؤالنا «هل تبحث عن مواضيع جنسية على شبكة الإنترنت؟»[٤٢].

وقمنا باستحداث متغيّر مركّب استناداً إلى الإجابات التي حصّلناها عن السؤالين المذكورين، تحت عنوان «الاهتمام بالجنس»، فوقع إزاءه كل واحد من المبحوثين في واحد من المصنّفين: مهتم/ غير مهتم بالأمور الجنسية؛ بناء عليه، جاءت نتائجنا على الشكل التالي:

باستثناء الجندر، لا تتمايز الفئات الاجتماعية والديمغرافية في ما بينها إزاء هذه المسألة: إذ تتشارك الفئات كلها تقريباً بتوسّل الممارسات الثقافية للتعبير عن اهتمامها بالجنس، أو بعدم الاهتمام به: فلا يرتبط ذلك الاهتمام بأعمار الشباب في الفئات الثلاث، ولا بمستوياتهم الثقافية الاجتماعية، وهو مستقل عن موقع سكنهم وموقع جامعاتهم، أكانت هذه الجامعات في العاصمة أم خارجها... إلخ. يشاهد أفلاماً إباحية (أو لا يشاهد)، مثلاً، بالدرجة ذاتها جميع المبحوثين من الفئات المذكورة. ويمكن تكرار القول بالنسبة إلى اختصاصاتهم، لكن الطالب الذي يرتاد جامعة خاصّة أكثر من المنتسب إلى الجامعة اللبنانية ميلاً إلى التصريح باهتمامه بالجنس.

وحول ارتباط الاهتمام بالجنس **بالممارسات** الثقافية الأخرى، تشير نتائجنا إلى أن الانجذاب نحو الممارسات البصرية والسمعية مرتبطٌ ارتباطاً ذا دلالة بالاهتمام بالجنس؛ وبعكس ذلك، فإن الانجذاب نحو الغرب، والتفضيل اللغوي والإكثار من استخدام الإنترنت... كلها لا صلة لها به.

اللافت في نتائج بحثنا أن الشباب الذين يتوسّلون الممارسات الثقافية للتعبير عن اهتمامهم بالجنس، يحتفظون بشبكة اجتماعية أوسع من الذين أبدوا اهتماماً أقلّ به في هذا المجال. فتخالف هذه النتائج الصورة التي يحملها الناس عن الشباب الذين يشاهدون أفلاماً إباحية، أو يبحثون عن مواضيع جنسية على الإنترنت، وينعتونهم بـ «الانطوائيين».

---

(٤٠) بيّنا في القسم الأول من هذه الدراسة ارتباط كثافة الاستهلاك الثقافي بالعامل الاجتماعي، وكذلك ميل المنتسبين إلى فئات اجتماعية ثقافية عليا إلى عقد العلاقات الاجتماعية خارج دائرة الأسرة.

(٤١) ٨ بالمئة من الإناث و٣٥ بالمئة من الذكور.

(٤٢) ١٦ بالمئة من الإناث و٣٨ بالمئة من الذكور.

خاتمة: ثقافة شبابية جامعة أم ثقافات فرعية؟

هل من ممارسات ثقافية يجتمع حولها طلاب وطالبات السنة الأولى في جامعات لبنان، التي ينتسب إليها أكثرية طلاب لبنان الجامعيين؟ وما هي العوامل التي تجعل من بعض سلوكاتهم وميولهم وتفضيلاتهم، ذات الصلة بهذه الممارسات، متباينة؟

تفيد معالجة المعطيات الناجمة عن بحثنا الميداني في أحوال هذه الفئة من الشباب اللبناني، بمواضع التقاء في ما بينهم تَعِدُ باحتمال تشاركهم في ثقافة جامعة. نتكلّم، كما لا يخفى، على الإنترنت، حيث إن الأغلبية الساحقة من الشباب المبحوثين في هذه الدراسة صرّحوا بأنهم يستخدمونه، ليبدو «الإبحار» في هذا الفضاء ممارسة شبه غامرة بينهم. وتخترق هذه الممارسة مواقع الشباب وسماتهم المختلفة والانتماءات الثقافية ــ الاجتماعية جميعها، وهذا يعني أن الشبّان والشابّات، وإلى أية فئة عمرية انتموا، أكانوا مسيحيين أم مسلمين، وإلى أية جامعة انتسبوا، ومهما تكن اختصاصهم، وأياً تكن مواقع جامعاتهم أو سكن أهلهم... كلهم سواسية في واقعة استخدام الإنترنت، سواء كان ذلك في بيتهم، وبواسطة حاسوبهم الخاص، أو في أماكن أخرى. وإذ تمكّنا من رصد نواحٍ من هوياتهم الاجتماعية ذات الصلة بالممارسات الاجتماعية، فإن استخدام الإنترنت بينَ هؤلاء الشباب جاء أيضاً غير مرتبط بها؛ نتكلّم على ميولهم وتفضيلاتهم واهتماماتهم المحمولة على هذه الممارسات.

أي إن الإنترنت، بما هو وسيلة للممارسات الثقافية، يحتل موقعاً «جامعاً» لهؤلاء الشباب كافة على نحو لم نلمسه في أيٍ من الممارسات الثقافية الأخرى.

لكن نتائجنا تشير، في الوقت نفسه، إلى انقسام ثابت بين انتماءات هؤلاء الشباب الاجتماعية ــ الثقافية. هذا الانقسام ذو تداعيات يجد أثره في انتماءات لاحقة تقوم بتعزيزه، بدل التخفيف منه. نشير، في هذا السياق، إلى الأثر الذي تُحدثه ديمقراطية التعليم، مثلاً، التي سمحت في بلدان أخرى بتمازج الطبقات الاجتماعية المختلفة، ووفّرت إمكانية الحراك الاجتماعي والانتقال من طبقة اجتماعية إلى أخرى؛ هذا فيما تقوم مدارسنا وجامعاتنا بتعزيز الانقسام الطبقي وتثبيته عبر التفاوت النوعي بين نمطَي التعليم عندنا: الخاص النخبوي، والعام «الشعبي»، فتبدو الممارسات الثقافية، وما يُناط بها من متغيّرات، بسيطة أو مركّبة عديدة قمنا بصوغها من مفردات هذه الممارسات... تبدو وكأنها فرصة إضافية للتعبير عن هذا الانقسام، بحيث يتجلّى في أغلب المواضيع التي عمدت هذه الدراسة إلى النظر إليها: السلوكات والتفضيلات والميول والاهتمامات. ولعلّ الأكثر بروزاً من بينها هو التفضيل اللغوي، والميل نحو التغرّب في الذائقة الثقافية؛ فقد أبدى الشباب من المستويات الاجتماعية الثقافية الأعلى ميلاً صارخاً إلى تفضيل اللغات الأجنبية، وتفضيل المنتجات الثقافية الغربية، فيما فضّل الشباب من المستويات الاجتماعية ــ الثقافية الأدنى اللغة العربية والمنتجات الثقافية العربية في استهلاكهم الثقافي. فالشباب، وإن شاع

استخدام الإنترنت بينهم، مثلاً، يختلفون في اللغة التي يتوسّلونها لذلك الاستخدام، ويختلفون في أوجه ذلك الاستخدام، والمواضيع التي يبحثون عنها في فضاءاته ... إلخ. ويمكن تكرار القول نفسه تقريباً لدى تناول الاستماع إلى الموسيقى ومشاهدة الأفلام وقراءة النصوص. ويتجلّى الاختلاف، وبشكل كبير، بين الفئات الاجتماعية ـ الثقافية في الظروف المحيطة بالممارسات الثقافية: فتنحو فئات الشباب من المستويات الأعلى إلى الاستهلاك الثقافي في الفضاء العام، وفي محيط إنساني يتجاوز العائلة والمألوف. وعلى العكس من ذلك، فإن فئات الشباب التي هي أدنى على السلّم الاجتماعي ـ الثقافي تنحو إلى التزام محيط البيت والأسرة. وإذ تميل الفئة الأولى إلى التنوّع والتكثيف، فإن الفئة الثانية تميل، بالمقابل، إلى الاختزال في ممارساتها الثقافية.

هكذا، فإن الاستنتاجات المباشرة لهذه الدراسة تشير إلى أمرين على طرَفَي نقيض:

هناك، من جهة، **تباعد** بين فئتين من الشباب اللبناني، تبعاً لتباعد أفرادهما على الصعيد الاجتماعي ـ الثقافي، وهو يتجلّى في مناحٍ وأوجهٍ رئيسية من ممارساتهم الثقافية. لكن هناك، من جهة ثانية، **وجود** غامر لجميع الشباب، ومن الفئات الاجتماعية الثقافية جميعها، في فضاء كوني. صحيح أن مقاصد ولوجَهم هذا الفضاء ما زالت محكومة بخياراتهم الثقافية ـ الاجتماعية، لكننا نأمل بألا يبقى ذلك الاختيار إرادياً لوقت طويل، ولن يصمد أمام اجتياح الإمكانات التي يوفّرها الاستخدام لهذا الفضاء؛ هذه الإمكانات التي ما نزال نكتشفها تباعاً، وهي تجاوزت خيال الحالمين منّا، أي إننا نغامر لنقول (استشرافاً) إن الوجود في الفضاء الكوني الافتراضي مرشّحٌ لأن يكون أرضية للتلاقي بين فئتَي الشباب المنقسمتَين، ليشكّل أفرادُهما معاً ثقافة فرعية تمزج بين المحلي والعالمي، ومصوغة موادها ومضامينها من مفردات متنوّعة المصادر، مستمدة، بدورها، من التنوّع السائد في ذلك الفضاء.

ما نستشرفه من تزايد احتمال التلاقي المذكور على الأرضية الافتراضية محمولة إشاراته على دراسات نوعية (بيترسون؛ ديب، وحرب؛ القزّاح، ٢٠١٠)، من جهة، واستناداً إلى بوادر تجسّدت في بعض النتاج الإبداعي للشباب في عالمنا، وفي توسّع الإقبال على استهلاك المنتجات الثقافية، من جهة ثانية. فتوافر الوسائل والإمكانات الهائلة وإتاحتها للجميع بلا استثناء الأقل حظوة من الشباب، ليس بدون أثر في خياراتهم. فيصعب بقاء هذه الخيارات أسيرة لانتماءاتهم الأولى، أو لتداعيات هذه الانتماءات. فإذا كان الشباب، عامّة، يندفعون (بل مسموح لهم) بالرغبة في التجريب وفي التوْق إلى المغامرة، فإن الشبّان والشابّات، وإلى أية فئة اجتماعية ـ ثقافية ينتمون، يملكون رهن أيديهم عالماً مفتوحاً على جميع الاحتمالات والإمكانات؛ هذا العالم يحمل في ثناياه إغراءً غير مكلف العواقب لتفعيل هذه الإمكانات وتلك الاحتمالات. وإذ يعجز «أولو أمرهم» وأصحاب النفوذ المسكون بزمام أمورهم، في هذه الحالة تحديداً، عن إقصائهم عن ذلك التفعيل، فإن افتراض أن يقوموا بذلك يقترب من الاستنتاج الواقعي لسير الأمور، ورجحان صحة هذا الاستنتاج رهن أبحاث قادمة في الموضوع □

المراجع

اسطفان ـ هاشم، مود وعزّة شرارة بيضون (٢٠١٠). «الشابات اللبنانيات: مشاهِدات، قارئات ومستمِعات.» في: **الممارسات الثقافية للشباب العربي: باحثات الكتاب الرابع عشر، ٢٠٠٩ ـ ٢٠١٠**. بيروت: تجمّع الباحثات اللبنانيات.

بيترسون، جنيفر. «الشباب المصريون وأغاني المولد.» في: **الممارسات الثقافية للشباب العربي: باحثات الكتاب الرابع عشر، ٢٠٠٩ ـ ٢٠١٠**. بيروت: تجمّع الباحثات اللبنانيات.

حرب، لارا ومنى حرب (٢٠١٠). «الالتزام والترفيه: مساومات الشباب للسلطات الأخلاقية وأمكنة التسلية الجديدة في ضاحية بيروت.» في: **الممارسات الثقافية للشباب العربي: باحثات الكتاب الرابع عشر، ٢٠٠٩ ـ ٢٠١٠**. بيروت: تجمّع الباحثات اللبنانيات.

القزّاح، مريم (٢٠١٠). «الشباب المغربي في أوروبا: نحو إسلام عصري متميز؟.» ترجمة معين الإمام. في: **الممارسات الثقافية للشباب العربي: باحثات الكتاب الرابع عشر، ٢٠٠٩ ـ ٢٠١٠**. بيروت: تجمّع الباحثات اللبنانيات.

مديرية الإحصاء المركزي (٢٠٠٨). **الدراسة الوطنية للأحوال المعيشية للأسر: تقرير الأوضاع المعيشية للأسر**. بيروت: مديرية الإحصاء المركزي، ٢٠٠٨.

المرصد الوطني للشباب (٢٠٠٥). **الممارسات الثقافية والتعبيرات المستحدثة لدى الشباب**. تونس: وزارة الشباب والرياضة.

المركز التربوي للبحوث والإنماء (٢٠١٠). **النشرة الإحصائية للعام الدراسي ٢٠٠٩ ـ ٢٠١٠**. بيروت: المركز، ٢٠١٠، < http://www.crdp.org/crdp/Arabic/ar-statistics/STAT_AR/2009_2010/statistics20092010_Ar.htm >.

المليتي، عماد (٢٠٠٩). «ثقافة الشباب العربي: الأوضاع الحالية والرؤى المستقبلية.» اجتماع الخبراء حول تعزيز الإنصاف الاجتماعي: إدماج قضايا الشباب في عملية التخطيط للتنمية، أبو ظبي، ٢٩ ـ ٣١ آذار/مارس.

Appadurai, Arjun (2001). *Après le colonialisme*. Paris: Payot.

Béra, Matthieu et Yvon Lamy (2003). *Sociologie de la culture*. 2ème éd. Paris: Armand Colin.

Bourdieu, Pierre (1979). *La Distinction: Critique sociale du jugement*. Paris: Minuit.

Bourdieu, Pierre et Jean-Claude Passeron (1964). *Les Héritiers: Les Etudiants et la culture*. Paris: Les éditions de Minuit.

Coulangeon, Philippe (2005). *Sociologie des Pratiques culturelles*. Paris: La Découverte.

Donnat, Olivier (2003). *Regards Croisés sur les pratiques culturelles*. Paris: La Documentation française.

Donnat, Olivier (2009). «Les Pratiques culturelles des Français à l'ère numérique: Eléments de synthèse 1997-2008.» *Culture et études* (Ministère de la Culture et de la Communication): no. 2009-5 (octobre).

Donnat, Olivier et Florence Levy (2007). «Approche Générationnelle des pratiques culturelles et médiatiques.» Culture et Etudes (Ministère de la Culture et de la Communication): no. 2007-3.

Fleury, Laurent (2006). *Sociologie de la Culture et des pratiques culturelles*. Paris: Armand Colin.

«Generation M2: Media in the Lives of 8- to 18-Year-Olds.» Kaiser Family Foundation: 20 January 2010, < http://www.kff.org/entmedia/mh012010pkg.cfm > .

Harb, Charles (2010). «Describing the Lebanese Youth: A National and Psycho-Social Survey.» Youth in the Arab World, Working Paper Series; 1, July.

Lahire, Bernard (2004). *La Culture des individus: Dissonances culturelles et distinction de soi*. Paris: La Découverte.

Le Breton, David [et al.] (2008). *Cultures Adolescentes: Entre turbulence et construction de soi*. Paris: Autrement.

McCulloch, Ken, Alexis Steward and Nick Lovegreen (2006). «We Just Hang Out Together: Youth Cultures and Social Class.» *Journal of Youth Studies*: vol. 9, no. 5, November.

Melki, Jad. (2010) «Media Habits of MENA Youth: A Three-Country Survey.» Youth in the Arab World, Working Paper Series; 2, July.